



الإنسان في القصر

عباس محمود العقاد



العنوان: الإنسان في القرآن.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الرابعة سبتمبر 2005 م .

رقم الإيداع: 2003/ 20998

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2557-9

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434 - 3473864 (02) فاكس: 3462376 (02) ص.ب: 31 إيلية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetnashr.com

المطبع: 20 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 6330287 (02) - 6330289 (02) - فاكس: 6330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطبع: press@nahdetnashr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 34 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفجالة - القاهرة.
ت: 4909827 (02) - 5908395 (02) - فاكس: 5908395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم الجاني: 0800272622
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetnashr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 401 طريق الحرية (رشدى)
ت: 3463090 (001)

مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عبد السلام عارف.
ت: 2239072 (030)

www.nahdetnashr.com
www.enahda.com

موقع الشركة على الإنترنت
موقع البيع على الإنترنت



للطباعة والنشر والتوزيع
أسما أحمد محمد إبراهيم سنة ١٣٧٩

احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابى صريح من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنْسَانُ الْقُرْءَانِ
وَإِنْسَانُ الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ

تمهيد

إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين ، ولعل مكانه في هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته في كثير من القرون الماضية ، لأن القرون الماضية لم تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه في الوجود كله ، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض ، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التي يعيش فيها من ذلك النوع ، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية يتسمى إليها ، كما أُلجأ إلى ذلك كله هذا القرن العشرون . . .
قديمًا كان الحكماء يجعلون شعارهم في نصيحة الإنسان : « اعرف نفسك ! » .

ولأنها نصيحة قد ترادف سؤالهم : من أنت ؟ أو سؤالهم : ما اسمك ؟ غير أن الإنسان إذا أجابه فأنما يجيبه باسم « باطني » يعرفه بعلامح وجدانه وقسمات ضميره ، ولا يقف عند تعريفه بالاسم الذي يختار اعتسافًا من بضعة حروف . . .

وهو على أية حال سؤال إلى « شخص » بعد شخص ، قد يسمعه عشرون في الحجرة الواحدة ويحيون عليه عشرين جوابًا متفرقات . . .

وقديمًا كانوا يزعمون أن أبا الهول كان يلقى سؤاله ، فيهلك من لم يعرف جوابه . وكان سؤالًا عن الحيوان الذي يمشي على أربع في الصباح ، وعلى اثنتين عند الظهر ، وعلى ثلاث عند المساء . . . فكان سؤالهم لغزًا من ألغاز الأقدمين عن الإنسان في أطوار عمره ، بين الطفل الذي يحب على أربع ، والفتى الذي يعتدل على قدمين ، والشيخ الذي يتحامل على عصاه ، وهو لغز شبيه بطفولة الإنسان كله . . . لا تبعد المسافة بين جهله وعلمه ولا بين الهلاك فيه والنجاة . . .

إلا أن القرن العشرين جمع الأسئلة ، فلم يدع سؤالًا عن نسبة من نسب الإنسان لم يطلب جوابه ، على نذير بالهلاك لمن جهل الجواب ، وقد يكون هلاكًا للجسد والروح . . .

ما مكان الإنسان من الكون كله ؟

ما مكانه من هذه السيارة الأرضية بين خلائقها الأحياء ؟ . . .

ما مكانه بين أبناء نوعه البشرى ؟ وما مكانه بين كل جماعة من هذا النوع الواحد ، أو هذا النوع الذى يتألف من جملة أنواع يضمها عنوان « الإنسان »
وهى أسئلة لا جواب لها فى غير « عقيدة دينية » تجمع للإنسان صفوة عرفانه
بدنياء وصفوة إيمانه بنبيها المجهول . . تجمع له زبدة الثقة بعقله ، وزبدة الثقة
بالحياة . . حياته وحياة سائر الأحياء والأكوان . .

إن القرن العشرين كان حقيقيا أن يسمى بعصر « الأيديولوجية » أو عصر الحياة
« على مبدأ وعقيدة » لأنه كلما ألقى على الإنسان سؤالا من أسئلته تلك لم يعفه من
جوابه ، ولم يسلمه إلى جزاء أهون من جزاء الحيرة عند السكوت عليه . . فإن يكن
سكوتا عن الأجوبة جميعا فهو الهلاك المحدث بالأبدان والعقول .

وليس أكثر من « المبادئ والعقائد » التى نسمع عنها فى هذا القرن . ويسمونها
بالمذاهب و « الأيديولوجيات » .

ولكن أجوبة القرن العشرين ، مهما يكن من شأنها ، فهى أجوبة العصر الذى
يحل المشكلة الزمنية ولا يتعدها إلى مشكلة الأبد : مشكلة ما مضى وما أتى من
الدهر وما يأتى إلى غير نهاية ، ولا جواب لهذه المشكلة غير العقيدة الدينية التى تؤمن
بها الإنسانية ، فلا يغنى فيها إيمان فرد واحد بينه وبين ضميره ، أو جواب سؤال
واحد لمن يقول : من أنت ؟ وماذا تعرف من نفسك بين عامة النفوس ؟ قصارك
إنك واحد منها بين ألوف الألوف ، عاشوا ويعيشون وسيعيشون ، ولا يسكتون عن
تلك الأسئلة عامة ، ولا أمان لهم ولا لك إن سكوتوا عليها .

هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغي أن توجد ، وإنما الضلالة فىمن يريد على
غير سوائها الذى تستقيم عليه ، ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتبذ غدا ، ولا توجد على الأيام للعارفين
دون الجاهلين ، وللعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون
الخير لأنفسهم ، ولمن يعتقدون دراية وحبّة دون من يعتقدون تسليما ورهبة ، ولمن
يسعون سعيهم إلى العلم والإيمان دون من يعمدون فى مواطنهم منتظرين ، وقد

يقعدون وهم يجهلون إنهم قاعدون ، لا يعلمون ما الخير وما المتظفر ؟ إن علموا أنهم منتظرون . . .

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ، ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ، ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير إليها ، وسيلها جميعا أن تهدي إلى قبة واحدة : تنظر إليها فتضي قدما ، أو تفقدها في الأفق فهي أشلاء محزنة ، كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق . .

إن القرن العشرين ، منذ مطلع ، يعرض العقيدة بعد العقيدة على الإنسان وعلى الإنسانية ، ولا نعلم إنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن ، وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، شملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها في كل معترك زبون ، يوم خذلتهم كل قوة يعكس بها الناس .

* * *

ونحن ندعى في هذه الصفحات أن النصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم ، وإن القرن العشرين سينتهي بما استحدثت من مبادئ ومذاهب و « إيديولوجيات » ولا ينتهي ما تعلمه أهل القرآن من القرآن . .

وإن أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه إذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التي يروجها دهاتها باسم المادية ، أو الفاشية ، أو العقلية ، ويريدون بها أن تكون على الزمن بدلا من العقائد الإلهية ، ومن عقائد الغيب الذي يحسبونه معلوما أو موجودا كحدهم .

وقد استمع الناس إلى المادية التاريخية ، فقالت لهم إن الإنسان عملة « اقتصادية » في سوق الصناعة والتجارة ، تلو وتهبط في طبقاتها بمجاري العرض والطلب وصفقات الرواج والكساد . أما الإنسانية فقد أنصت إلى المادية التاريخية ،

فقلت لها إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلفها الأسعار والأجور . .
واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر
مسود ، وإن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد قبل ذلك
عبد للسيد المختار ، بغير اختيار .

واستمع الناس إلى « العقلية » فقال لهم قائل منها إن « إنسانيتهم » كذلك شيء
لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وإن الشيء الموجود حقا هو الفرد
الواحد ! . . وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى ، كلما أمن
المغبة من سائر الأفراد والأحداث ، . !

وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية عن مكان هذا الإنسان من
الأرض والسماء ، ومكانه من إخوته في آدم وحواء .

سمعوا إنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ،
ويصح له الوجود بمقدار ما صح له من عقى القناء . .

وسمعوا إنه إنسانان . . إنسان صحيح مقبول ، وإنسان زائف مدخول . .
صحيح مقبول كل من اجتباء مولاة على هواه ، وزائف مدخول كل من خلقه
ونفاه ، ولعله لم يخلقه ودعاه إليه من دعاه .

وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب
بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعة بقدر من الأقدار ، لا نصيب له فيه من
عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار .

وسمعوا من القرآن غير ذلك ، فهم متدبرون يستمعون إلى العقل كما يستمعون إلى
الإيمان إذا اطمانوا ولبتوا على اطمئنانهم إليه . .

الإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله . . يدين
بعقله فيما رأى وسمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، فلا تدركه الأبصار
والأسماع .

و « الإنسانية » من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد ، أفضلها من عمل حسنا واتى سيئا ، وصدق النية فيها أحسنه واتقاء . .

* * *

وفي الصفحات التالية كتابان في كتاب وجيز . . نبدأهما بعقيدة القرآن فنعيد هذه الكلمات القلائل في صفحات ، ونتلوها بعرض مفيد لتاريخ البحث عن نشأة الإنسان في مذاهب الفكر والعلم أو مذاهب الخدس والخيال ، ولا نزيد في سردنا على الالمام بما يصلح أن يكون محكا للنظر فيما يؤخذ بالبرهان أو يؤخذ بالإيمان عن حقيقة الإنسان . .

الكتاب الأول

الإنسان في القرءان

المخلوق المسئول

ارتفع القرآن بالدين من عقائد الكهانة والوساطة وألغى المخاريب إلى عقائد الرشد والهداية . . لا جرم كان « المخلوق المسئول » صفوة جميع الصفات التي ذكرها القرآن عن الإنسان ، إما حصة بالتكليف أو عامة في معارض الحمد والحمد والدم من طبعه وفعاله . .

ونقد ذكر الإنسان في القرآن رعاية الحمد وعبدية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة فلا يعنى ذلك إنه يحمد ويذم في آن واحد ، ومعنى معناه إنه أهل للكدن والغصص بما فطر عليه من استعداد لكل مهيا ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف .

والإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بورر واحد ، ولا أمة بورر أمة :

﴿ كُلُّ أُنْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ سورة الطور آية ١٢١ .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ سورة البقرة آية ١٣٤ .

* * *

أما مناط المسئولية في القرآن ، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه المباحين من حكمة التشريع الديني أو التشريع في الموضوع

فهو بمصوص الكتب قائمة على أركانها خمسة : تبليغ ، وعلم ، وعمل ، فلا تحقق التبعة على أحد لم تسعه المدعوه في مسائل الغيب ومسائل الإيمان .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَّسُولُهُمْ قُصِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

سورة يونس آية ٤٧ .

* * *

﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ سورة فاطر آية ٢٤ .

• • •

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ سورة الاحراء آية ١٥ .

• • •

أما العلم فإن أول آية في الكتاب تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية ، كانت أمرا بالقراءة وتنويعها بعلم الله وعلم الإنسان

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ④ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ⑤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَا يَعْلَمُ ﴾ سورة العلق ٣-٥ .

رأول فالح في خلق الإنسان ، كانت فاتحة العلم الذي نعلمه آدم وامتار به على سائر المخلوقات :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ⑥ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ سورة البقرة آية - ٣٢ .

• • •

وأما العمل فهو مشروط في لقرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة التكلف . وبالسعي الذي يسعه لربه ولنفسه

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ سورة البقرة آية ٢٨٦ .

﴿ وَإِنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ سورة الجهم آية ٣٩ .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ سورة الزلزلة ٧ - ٨ .

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أمهم جميعا أمة واحدة هي
« الأمة الإنسانية » ولهم جميعا إله واحد هو رب العالمين .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾
وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾

سورة المؤمنون ٥١ - ٥٢

...

وهما ذكر فيه الإسناد من آيات الكتاب وصف له ، وهو في الدروة من الكمال
المقدور له بما استعد له من التكيف ، ووصف له وهو في لدرك الأسفل من لحظة
التي يحذر إليها هذا الاستعداد ، وكل هذه الآيات توسع بمفصل فيما ورد من
بصوص الأمر والهي ، والعظة والتذكير ، والثواب والعقاب

فالإسناد أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتعدد بين خلائق السماء والأرض ،
من دى حياة أو غير دى حياة :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمَّا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي آثَرٍ وَالْبَحْرَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

سورة الاسراء ٧٠

...

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ سورة التين آية ٤

﴿ تَحَرَّكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ سورة لقمان آية ٢٠

﴿ تَحَرَّكُم مَّا فِي الْأَرْضِ ﴾ سورة الحج آية ٦٥

...

وبكنه يفرق بين الخلائق بمساويء لا يوصف بها غيره ، لأن السيئة والحسنة
على السواء - لا يوصف بها مخلوق غير مستول

فهد مخلوق مستول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والظن
والخسران والهجور والكفور ، لأنه دون غيره أهل للأيمن والعدل والرحمة
والعفاف

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَطَوْمٌ كَفَّارٌ ﴾ «سورة إبراهيم ١٢٤

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَمٌ ۖ ۝٦٧ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى ۖ ۝٦٨ ﴾ «سورة العلق ٦ - ١٧

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشَرٌ ﴾ «سورة العصر آية ١٢

* * *

﴿ نَسْ يَرِدُ الْإِنْسَانَ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴾ «سورة القيامة آية ١٥

* * *

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُودٌ ﴾ «سورة العاديات آية ١٦

* * *

وقد يذكر بالصددين في الآية الواحدة كما جاء في قوله تعالى

﴿ نَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝١ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ «سورة التين ٤ - ٥

ونقرأ في بعض التفسير أن أسفل سافلين هو أردل نعر ، وهو يقتضي أن يكون
«أحسن تقويم» هو تقويم الطفل الوليد .

ونقرأ في غيرها أن أسفل سافلين هي الحميم ، فيكون لزاما أن الحفة هي
المقصودة بأحسن تقويم

وهم لكثيرون أن التقويم الحسن هو الصورة الطاهرة لاعتدال قوم الإنسان ،
وليس جمان خلق وحده مرتبطا باعتدال القوام ، بل مرتبط به لقدرة على العمل

والإرادة ، وهي قدرة لم يحف علاقتها بصورته انظاره قل عصر التشريع والعلم
بوظائف الأعضاء الذي أثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة وجهاز النطق في
الرأس والحنق وعمود الظهر وسائر البدن ، ثم راد اناس عما يدعيه التقوم الحسن
من هائل العقل والحسد ومن مزيا القطعة والجمال .

وبما المعنى الموافق لسائر معاني الآيات ، أن اجمع بين التقيضين في الإنسان
ينصرف إلى وصف واحد ، وهو وصف الاستعداد الذي يجعله أهلا للترقى إلى
أحسن تقوم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين .

على أن الآيات التي قصر فيها القول على خلق جسد الإنسان ، لم تحمل مما يرحى
إلى الحقوق المستول أن أطوار حقه السوى ،عداد له هو أشرف من حدته الحيوية ،
وبرهان من براهين التبيين برسالة العبد ،عسى أن ينظر في الخلق يرى فيه آثار الخالق
الذي لا تدركه الأبصار والأسباع

﴿ وَنَقَدَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَهُ نَظْمَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَفَا النُّظْمَةَ عِلْقَةً خَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مَصْدَعًا لَخَلْقِ الْمُصْعَةِ عِظْمًا
فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْتُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

سورة المؤمنون ١٢ - ١٤

• • •

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ
خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝
ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ۝ ﴾

سورة السجدة ٦ - ٩

• • •

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ ﴾

سورة الروم آية ٢٠

• • •

﴿ سَتَجِدُنَا أَلَدَىٰ خَلْقِ الْأَرْضِ كُلِّهَا إِنَّمَا نُتِبْتُ الْأَرْضَ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا

﴿ سورة يس آية ٣٦ ﴾

﴿ لَا يَعْبُرُونَ ﴾

ولا يسأل الإنسان عما يجهل ، ولكنه يسأل عن علم وعما وسعه أن يعلم ، وما من
شيء في عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان ، فما وسعه
من علم فهو محاسب عليه .

الكائن المكلف

انقرآن كتب تبليغ وإقناع وتبيين ، وقوم هذه القضية فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه . وبين عقائده وعبادته ، وبين حجته ومقصده ، فكل ركن من أركانه ينزل فيه بأقداره ، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به أو يتم بها على قدر معين .

ليس ثم ولا أعجب من التوافق بين تمير الإنسان بالتكليف ، وبين حدود العقل في هذا الكتاب المبين ، بكل وصف من أوصاف لعقل ، وكل وظيفة من وظائف في الحياة الإنسانية .

وحقيق بالمسلم ، وبكل دارس للأديان ، أن يتسه إلى هذه القضية التي تحسب لأجل وهمة كأنها شيء من الواقع السديهي لا يحتاج إلى تنبيه ، ولكن حاجته إلى التنبيه إنما تظهر عند المقارنة بين القرآن وبين جملة من انكتب الدسه الكرى . في فصيلة التبليغ المقصود ، ونعني به التبليغ الذي يراد ويتناسب فيه إبيان على حسب الأحكام والأركان .

في كثير من الأديان أركان تقوم عليها دعائم الدين كله ويرتبط بها حياة الإنسان من هلاك أو صياعه في هداية المقت والمنة ، ثم تبحث عن هذه الأركان في كتب الدين فإذا هي معروضة فيه بين السطور ، يحيطها المفسرون إلى حكم القرينة ، ويجوز لمن شاء أن يحسبها من مصادقات القول ينساوي السكوت عنها والنص عليها . . . مثل هذا لا يعرف في حكم من أحكام الكتاب المبين ولا في ركن من أركانه ، من المعروف به عن نقيض ذلك أن تبينه عن قدر عريضته وأن التوافق فيه على أتمه بين الأركان التي تتلازم وتتكامل ، عن بيان مقصور لا محل فيه لعرض المصادفة ، بل لا محل فيه لتجاهل القصد مع رسالة من رسالات التبليغ . .

مكان الإنسان في القرآن الكريم هو أشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان المعكر وفي ميزان الخليفة الذي تورن به طبائع الكائنات بين عامة الكائنات

هو الكائن المكلف . .

هو كائن أصوب في التعريف من قون القائلين « لكائن الناطق » وأشرف في التقدير . .

هو كائن أصوب في التعريف من الملك اعابط ومن الحيوان الصاعد ، وأشرف في التقدير من هذا وذاك .

ليس الكائن الناطق شيء ، إن لم يكن هذا اسطق أهلا لأمانة التكليف وليس لذلك الهبط منزلة تهدي إلى طريق الصعود أو طريق الهبوط ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة الفصل بين ما كان عنه وما صار إليه ، ولا بمنزلة التمييز بين حال وحال في طريق الارتقاء .

بما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلاق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة ، وحادث من حوادث الفتح في الحقيقة موضوع في موضعه لمكب بالقياس إلى كل ما عده . .

أي شيء أصعب من هذه الخاصة بحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات القسمة وتعريفات الدعوة الدينية . .

إنها عجيبة لا يدع عجبها إلا أنها تحرى على مستها من تبليغ الكتب اسين إنها عجيبة لم تأت من مصادفات التصميم والتحميم ، لأن الكتاب الذي مير الإنسان بحاسة التكليف ، هو الكتاب الذي متلاً بحصب « اعقل » لكل ملكة من ملكاته ، وكل وظيفة عزمها به العقلاء والمتعقلون ، قبل أن يصح اعقل و درسا و يتقصاه الدارسون كها وعملا ، وأثرا في داخله وفي خرج عنه ، وفيها يصدر منه وما يقول إليه . .

لعقل وارع « لعقل » صاحبه عما يأباه له التكليف .

العقل فهم وفكر يقب في وجوه الأشياء وفي بوطن الأمور

العقل رشد يميز بين الهداية والصلال . .

العقل روية وتدير . .

: العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار

والعقل ذكرى تأخذ من الماضي للحاضر ، وتجمع العبرة مما كان لما يكون ،
وتحفظ ونهى وتبدئ وتعيد . .

والعقل بكل هذه المعاني موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر
بمعروف ، وكل نهى عن محظور . .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أليس معكم رجل
رشيد ؟ أفلا تتذكرون ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي بناط بها التكليف حجة على المكلفين فيها
يعيهم من أمر الأرض والسماء ، ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم ، وخالق
الأرض والسماء ، لأنهم :

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّاهُمَا حَلَلْتَ هَذَا نَطْلًا ﴾

« سورة آل عمران آية ١٩١ » .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَحَلَّ مُسَمًّى ﴾

« سورة الزم ٨ »

وقد نقل تكايف القرآن جميعا ، ونقل عظامه جميعا إذا أردنا الشواهد على
هذا التوافق الموصول بين تمييز الإنسان بالتكليف في القرآن وبين حطاه للعقل
والفكر ، وتذكيره بالرشد والبصر وسائر ملكات التمييز في مصطلحات الأوائل
والأواخر ، ولكنها شواهد حاضرة في ذهن كل قارئ لهذا الكتاب ، وكل قادر على
المقابلة به وبين غيره من كتب الأدباء ، ولو لم يعبر بها غير صفحات معدودات .

ومن تمام التوافق بين أركان التبيين في هذا الكتاب أن الأمر فيه يجرى على هذه
السنة ، فيما أتى به فريدا غير مسبوق عن رسالة البوه .

إنها الرسالة التي لم تعرف قط في التاريخ البشري قبل تمييز الإنسان بحاسة التكليف وإعداده لخطاب العقل وبيئات الاقتناع .

كانت الأمم - قبل البعثة المحمدية - تفهم أن النبوة استطلاع للعب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعان بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوابع الخير والشر وتقدير السعود والنعوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع إليه بالمدايا والفراير ، وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوارل التي يستحقونها وتزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ، ويسألون المعبود في دفعه قبل نزوله . . فجاءت نبوة الإسلام بمجديد باق لم تسبق به سابقة في الدعوات الدنية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة لتجديد ، لأنه يخاطب في الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء ، أو خاصة الضمير المسئول الذي يحمل نعته ولا نعيه عنها شفاعا ولا كفارة من سواء . .

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجم . . وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير ، وليست نبوة خوارق وأهوال تروح الصبر والصيرة وتروع الصوائر بالتحريف والارهاب حيث يعيها قبول الاقتناع . .

إنها نبوة مشرة متلذذة لا تملك لهم مفعلا ولا مفعلا ، ولا تعمل لهم عملا غير ما يعملونه لأنفسهم عشيقتهم إذا اعتدوا بهداية العقل المتدبر والصمير السليم .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا كُنتُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
﴿ لَا تَتَّبِعْتُم مَّنْ آفَعَوْا بِمَنِّي آفَعًا إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا يَدِيرُ فَخْرٌ يُؤْمِنُونَ ﴾
سورة الاحراف آية ١٨٨ . .

نعم . . ولا إغراء ولا مساومة على جراء بين الأخذ والعطاء :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ نَحْمُ عِندَ رَبِّي اللَّهِ وَلَا نَعْلَمُ نَعْبَتَ وَلَا أَقُولُ نَحْمُ إِيَّيْكَ ﴾
﴿ إِنَّا نَسْتَعِينُكَ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّكَ إِذَا يَدْعُنَا فَجِبْنَا أَوْ قَالَ اجْعَلْنَا أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾
سورة الانعام آية ١٥١ . .

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته ، وأبى النبي الصادق أن يسكت عليها ، فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر يتان لا تحسمان لموت أحد ولا لحينه .
وقد بين للناس أن المعجزة لا تحصى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء إلى بينات الإقناع .

﴿ رَلَوْ فَفَحَثَ عَلَيْهِمْ نَارًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾
سورة الحجر ١٤ - ١٥

ولقد تقدمت نوة الإسلام دعوات كثيرة ، من أكبر لدعوات شأن في تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر في أدوار التاريخ لم يستطع أن يحتم دور النبوة في تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأن ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد في أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

فبواب بني إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تعزل محاصرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم وعيسى عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح في عداد أبنائه بالحسد ، وبكته أدى رسالته وبقي الإنسان بعده محتاجا أشد الحاجة إلى رسالة تحمسه من الاعتماد على غيره في النجاة من أوراره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتيغات صلاحه وزيه روحه ، ومن تفرغ أمانة النبوة في تاريخ الإنسانية قبل أن يوجد الإنسان الذي يحاسب بحطاب العقل ومحاسب بحسابه ، ويحمل نيماته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين إخوانه من الشرق عبادة إله واحد ، هو رب العالمين ، ويسبب بالرب الذي يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفصل م تعصه ، وحساب لم تصعه في موازيتها بعمل يمينها . .

فلما جاءت نبوة التكليف ، صبح في حكم العقل أن تحتم في النبوة لأب حاضرة في كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول ، وتحصره آيات الله لقوم يعقون

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْوَعْدِ بِمَا بَسَمَعَ النَّاسُ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَى بِهِ الْأَرْضَ نَعْدَ مَوْنَهَا وَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَنْتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾
 سورة ناقة ١٦٤

* * *

إن قيام النبوة على إقناع العقل المستور بآيات لكونه ، قد احتتم سلطان الأحرار والقادة كما احتتم سلطان البوات بالمعجزات وخوارق العادات ، فلا يعجز الإسلام إنسانا يعقل عقله لطيع السادة المسكربين أو يطيع الأحرار المتسلطين سلطان المال والدين :

﴿قَالُوا يَمِ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُنْصَعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَارُوا فِيهَا﴾
 سورة الساء آية ١٩٧ .

* * *

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا الْحَنُ صَدَدْتُمْ عَنْ أَهْدَى نَعَدَ هَذَا كُنْتُمْ تُجْرِمُونَ﴾
 سورة سبا ٣٢ .

* * *

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامُوا إِنْ كَثِيرًا مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾
 سورة التوبة ١٣٤ .

* * *

﴿اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرَهْنَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾
 سورة التوبة ٣١ .

* * *

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكّين بعباد الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم إن كان لا يعلم ، لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يغيّبه ، ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ فَاَسْأَلُوْا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾
 « سورة النحل آية ٢٤٣ »

فلذا سمى اختتام النبوة باسمه الحق في تاريخ الإنسان ، فاسمه الحق أنه هو فاتحة عهد الرشيد في حياة الإنسانية الخالدة ، قبل عهد الرشيد الذي أخرجه القرون الوسطى بسبعة قرون

ومن عبث الجهالة أن يفهم هذا الميقات الخليل فهم العقول الصغار ، فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، ونسمع من يفسره في « عصر العلم » فلا يفهم منه إلا أنه « حكر » الأثرة يغلقه التي على من بعده ، ويسبغ هذا السحف وهو ضرورة لا تقل التصور عن هذا النهي ، كيما تصوره انناظر إليه على حقيقته أو على دعواه . . فهذا « الحكر » صنع لا يصنعه نبي أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينقى سلطان المعب عن نفسه ، ويطرد سمعة المجزة عن دعوته ، وهي طمعة متفاداة بين يديه . . فإن جاز في حقه هذا « الحكر » المختص ، فهل يجوز في حقه أن يختصه من لله وأن يأمن تكذيب الله إياه ، وقدرته على إغلاف دعواه ؟

إن اختتام النبوة لا يفهم هذا الفهم الصغير في عقل يطبق أن يترك الواقع من أمر دعوة عظيمة ولا شأن عظيم ، ولو كان احتكار النبوة باعث النبي إلى دعواه لما دخل فيها ذهاب سلطان الأخبار والولاة ، ولا دخل بها ادعاء النبوة أصلاً وهي لا تحل أبى ، ولا مدعى النبوة أن يحجب المعب المجهول من مشيئة الله .

ولكن الإيمان بالعقل المسئول ، هو الباعث اليين الذي يفسر ما لم يفسره صغار العقول من اختتام النبوة واختتام الكهانة واختتام سلطان الحاكمين على الصمير وان نظامه كله على هذه السنة المتعة هو الآية الناطقة بإرادة الله .

رُوحٌ وَجَسَدٌ

عقيدة الروح إحدى العقائد الغريبة في القرآن والعقائد الغريبة أساس عميق من أسس التدين ، تقوم عليه كل ديانة يطمح إليها ضمير الإنسان ، ولكن الفضيحة الأولى في عقائد القرآن الغريبة أنها لا تعطل عقول المؤمنين بها ، ولا سطل التكليف بحطاب العمل المستول ، وهو يؤدي حق التمييز وحق الإيمان والإسلام إسلام الأمر كله إلى الخائف المعبود .

وعقيدة الروح إحدى العقائد « الغريبة » التي نلحس فيها هذه الفضيحة ، كأنها من حقائق الحس وإن وجب على العقل الإنساني أن يؤمن بعمله القليل فيها ، وأن يسلم تسليم الإيمان بأنها من علم الله . .

ذلك بأن الإيمان بالروح ، لم يبرص على العقل البشري في القرآن الكريم نقیصة من النقائص التي تشطره بين ضدين متدبرين ، ولم يفهم النفس البشرية بقاصم من الحيرة بين الخفتين : خلفة الإنسان روحا مجهول القوام ، وجسدا معروفا المطلب والعابث ، محسوس اللذات والآلام .

فالروح والجسد في القرآن الكريم ملاك الذات الإنسانية ، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما في سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليقوى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يحس لروح حقا ليقوى حقوق الجسد ، ولا يحسد منه الاسراف في مرضاة هذا ولا مرضاة ذاك . . وعلى الله قصد السبيل

والقرآن الكريم ينهى عن تحريم المباح كما ينهى عن إباحة المحرم :

﴿ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تُحَرِّمُوْا طَيِّبٰتٍ مَّاۤ اَحَلَّ اللّٰهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوْاۤ اِنَّ اللّٰهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِيْنَ ۝۸۷ وَكُلُوْا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ حَلٰلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللّٰهَ الَّذِيْۤ اَنْتُمْ بِهٖ مُّؤْمِنُوْنَ ۝۸۸ ﴾

سورة المائدة آية ٨٧ - ٨٨ .

والقرآن الكريم يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صعب يده ، وأن يبتق منها غير مسرف في إنفاقه ، وأن يسم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لا يحل له أن يجنبها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا مِن طَبِئَتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أُنْحَرَ حَالَكُمْ
مِنَ الْأَرْضِ ﴾

سورة النقرة ١٧٢ ،

• • •

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَبِئَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
تَعُدُّونَ ﴾

سورة النقرة آية ٢٦٧ ،

• • •

ومن تمكن الإنسان في الأرض أن يتغنى فيها معيشته ويسم فيها مطيته ، وأن يتحلل منها زيبته ، ويتم بها عدته ، ولا يرهق في شيء من خيراتها يخرجها لنفسه أو تخرجها له الأرض من فضل ربه :

﴿ وَالْحَبَلُ وَإِعَادَ وَالْحَمِيرَ يَتَرَكُوهَا وَرَبَّهُ وَيَحْتَقُ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَعَلَى اللَّهِ
قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ هَدَيْنَاكُمْ أَتَحْمِلُونَ ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً لَّكُمْ مِمَّنْ شَرَابٌ وَمِمَّنْ تَحْرَقُ بِهِ تُسِيمُونَ ﴿ يُبْدِ لَكُمْ فِيهِ الرِّعَاقَ وَالرَّيْتُونَ وَأَسْجِلَ
وَالْأَعْنَاقَ وَمِمَّنْ كَلْبٌ أَلْسَنَتِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَنْصَحُونَ ﴾

سورة الحبل آية ٨ - ١١

• • •

بل لزيينة للعبادة واجبة كوجوبها لمقاصد الدين ومصائب المعيشة ، والخطاب في هذا موجه إل بني آدم لأنه نعمة مرسية من نعم الإنسانية ، ومن تمخير الله هذه الإنسان على مآثر الحيوان :

﴿ يَنْفِيءَ آدَمَ حُدُودَ رَبِّكَ عِدَّ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ رِيسَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿

سورة الاعراف آية ٣١ - ٣٢ .

• • •

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكَ فِيهَا مَعَيشًا ﴾

سورة الاعراف آية ١٠ .

• • •

فهو من تمكين بني آدم بين خلائق الله ، وهو من حق المعيشة الأرضية وواجب الحياة الدنيوية ، لا تناقص فيه بين روح وجسد ، ولا تنازع فيه بين دني وآخر ، ولا فساد فيه للذات الإنسانية يحار فيه العقل وتشرق به أوصال الصبر وقوامه في خطاب التلجج للإنسان من بني آدم كافة .

﴿ وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

سورة القصص آية ٧٧ .

• • •

فلس السعي في سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة ، وليس في القرآن فساد بين روح وجسد ، أو اشتقاق بين عقل ومادة ، أو انقطاع بين سماء وأرض ، أو شتات في العقيدة يوزع « الذات الإنسانية » بين ظاهر وباطن وبين عيب وشهادة ، بل هي العقيدة على هداية واحدة تحبس بالروح كما تحبس بالجسد ، في غير إسراف ولا جور عن السبيل :

﴿ وَمِمَّا حَقَّرَ وَنَوَّشَاءُ لَعَدَّكَ أَحْمِينَ ﴾ (سورة الملح آية ٩)

في القرآن الكريم هذا الإلهام الصادق ، ينقل العن من مفاصل التكبر ، ولا يحبه من نقائص التكليف وحسد ، أو من نقائص الخيرة بين العالين في حقائق الدين ، ولا مزيد .

فمن ضلال التفكير قد بما ، أنه ساق كيار العقول إلى ذلك الفاصل المتخسف بين
عالم النور والظلمة الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى . .

كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ،
وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل ما دونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا
يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور .

وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم به بين النور والتراب ، وبين الجوهر
والعرض ، قد دار كل ما دار قديما وحديثا - في الدين والعلم - من عزل أصيل بين
الصفاء والكثرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين التقيصين من
النور والظلام . .

إن هذا الاعتساف في التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل
زمتا طويلا عن فهم حقائق الحس ، كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق
التكليف وحقائق الأديان .

إن العقل ليحلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الصياء ، من معدن واحد ، وأن
الحجر اليابس تنفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع انطلق بنقطة ويتقابل فإذا هو
حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك
كذلك في خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان . .

فإذا يقول العالمون بالدرة من « المؤمنين » بالمادة دون الروح ؟

ماذا يقولون عن عقل « الدماغ » كيف يرى ما لا تراه العين بشعاع الصياء ؟
سيقولون عندما ما قال به قارئ الكتاب إيماننا حين قيل له عن الروح فسمع
وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان :

﴿ نَلِّ الْأَرْوَاحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

« سورة الاسراء آية ٨٥ »

النفس

تكلم حكماء اليونان عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الكون . .

وتكلموا عن العقل والروح والنفس بمعانيها التي تنسب إلى الإنسان . . ورتبوها على حسب صفاتها وعلو جواهرها ، فكان العقل عندهم أولها وأشرفها ، لأن جوهر العقل المطلق هو الله حل شأنه ، والعقل الالهي هو العقل الفعال Poietikos المتره عن المادة والهوى ، وعنه يصدر العقل الإنساني أو العقل المنعزل Potbesikos ثم تأتي الروح والنفس بعد ذلك في الصفاء والشرف . . فصدرهم أن الروح أقرب إلى عنصر النور ، وأن النفس أقرب إلى عنصر الهواء والتراب ، ويعول أتباع أفلوطين أن العقل الالهي فيهم صمد عنه « النفس » ومنه صدر ما دونه من الموجودات على ترتيب شرفها وصفاتها ، وهم يذكرون النفس بصيغة المذكر ويتابعهم في ذلك من كتبوا بالعربية وتابعوهم في مذاهبيهم الصوفية . .

والروح أرفع من النفس في درجات الوجود ودرجات الحياة عند أكثر حكماء اليونان ، فمنهم من ينسب النفس إلى الكائنات العنصرية جميعا ومما كل نبات ينمو ويند ويوصف ببعض صفات الأحياء ، فمعنى النفس عندهم على هذه الصفة مرادف لمعنى « الحركة الحيوية » أو معنى القوة التي تجعل أعضاء الجسم الحي مخالفة للأجسام المادية في قابلية النمو والتوسع ، ونصبيها من الإرادة أكبر من نصيب الخمد وأصغر من نصيب الروح ، فإنها لا تملك الانتقال من المكان الذي هي فيه .

فالعقل والروح والنفس قوى حية على هذا الترتيب من الشرف والصفاء ، ولا يسن له نصيبه من العقل . . ولكنه دون لعقل الفعال في جوهره وتنزهه عن المادة والهوى وله روح يعلو به عن سائر الموجودات ، ونفس قد يقترب من الكائنات التي تنمو وتند وتزيد على درجات . .

إن هذا الاختلاف بين هذه القوى في مصطلح الحكمة اليونانية ، وفي لغة الكتاب المبين ، يقاس من ناحية إلى كثافة المادة ويقاس من ناحية إلى المثل الأعلى ، وهو الله .

وقد يقاس الكمال في مصطلح حكمة اليونانية إلى الجوهر بمقدار ارتفاعه ، وإلى المادة أو الميولي بمقدار هبوطه . .

ولكن كمال هذه القوى في سعة لقرآن مقيس إلى كمال الله حل شأنه فأمرها وأشرفها ما كان أقرب إلى الصفاء بهيه وأدناها وأحسها ما كان أبعد من تلك الصفت

ومن المقسة بين هذه القوى ، كما ذكرت في الكتاب المبين ، قد تشير أن « الروح » هو أقربها إلى حياة الباقية وأحفاها عن المدارك الحسية . وأنه اجاب الذي ستأثر الله بعمه واحتجب عن أعيانه ، لأنه سر الوجود المطلق لا قدرة لعقل الإنسان المحدود على الاحاطة به ووعيه إلا بما يناسبه من الإشارة والتفريب

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾
(سورة الإسراء ٨٥)

أم العقل والنفس في بيان القرآن الكريم ، فالراجح أن النفس أقربها إلى لطمع أو القوة الحيوية التي تشمل لإرادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها الهم ، والقوة التي يزدهقها لقتل ، والقوة التي تحبس العمة والعذاب وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة . فهي القوة التي تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل أو منفادة سورع انطمع والهموى ، وتوضع ها انوارين القسط يوم القيامة . .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَإِلَىٰ رُبُّنَا فِي مَآمِهَا ﴾

(سورة الزمر آية ٤٢)

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾

«سورة الانعام آية ٦٠»

وإذا ذكر قتل لنفس « في القرآن » ، فربى هو قتل الانسان أو ساس عى حسب الخطاب إلى المرد أو الجماعة :

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ قَدَرٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

«سورة المائدة آية ٣٢»

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ «سورة النساء آية ٢٩»

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَا تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ ﴾

«سورة النقرة آية ٨»

ولكن الاسان اعم من النفس لأنه مشمول أن يهاها

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّأَ نَفْسَهُ خَشْيَةً فَإِنِ الْحَيَاةُ هِيَ

أَسْمَارِي ﴾ «سورة المزاحم آية ٤٠-٤١»

فجملة هذه القوى من النفس والعقل والروح هي « لذات الانسانية » تدل كل قوة من على « الذات الانسانية » في حالة من حالاتها ، ولا تتعدد « الذات الانسانية » بأية صورة من صور تعدد لانها ذات نفس أو ذات روح أو ذات عقل ، فإنما هي إنسان واحد في جميع هذه الحالات ، وهي تعبرت عنها في جميع لعبت تقضى في ضرورة الكلام عن كل قوة حفية تدرك أعمها ولا تدرك مصاحرها ، وعن هذا الحوتكم الناس عن منكات العقل والنفس والروح ، وعن يسب إليها من رعى باطن ووعى ظاهر ، ومن صمير ووحدة رخيائ وحافطة وبديهة وروية إلى غير هذه الأسماء التي تتعدد للتمييز بين الأعمال ، وإن لم تتعدد في مصدرها معلوم أو المجهول .

وفد ذكرت النفس في القرآن بجميع قواها التي يدرسها اليوم علماء النفس
لتخصصون هذه الدراسات في موضوعاتها الحديثة . .

ف قوة الدواعي العريضة تقابل النفس « الأمانة بالسوء » .

﴿ وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ ﴾ « سورة يوسف آية ٥٣ »

وقوة النفس الوحيية تقابل النفس للهمة :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ فَأَلَمَّهَا خُورَهَا وَتَقَوَّيْنَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ

رَكَّزْنَاهَا ۚ وَقَدْ حَاقَ مِنَ دَسَّاسِهَا ﴾ « سورة الشمس آية ٧ - ١٠ »

وقوة الضمير تقابل النفس للوامة ، وهي النفس التي يقع بها الحساب كما يقع
عليها ، وحاء ذكرها من أجل ذلك مقروبا بيوم القيامة :

﴿ لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَلَا أَقِيمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ﴾

« سورة القيامة آية ١ - ٢ »

ثم ذكرت موصوفة بالابصار والعلم عواقع الاعداد .

﴿ نَلِّ الْإِنْسَانَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِصِيرَةً ۚ وَوَالَّذِينَ مَعَادِرُهُ ﴾

« سورة القيامة آية ١٤ - ١٥ »

وقوة الإيمان والثقة بالعب تقابل النفس المطمئنة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۚ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾

« سورة العنكبوت آية ٢٧ - ٢٨ »

وفي كل موضع من هذه المواضع ، تذكر النفس الانسانية بعامة هذه القوى .

فتجمعها خاصة واحدة هي خاصة الانسان في القرآن ، وهما كما تقدم خاصة

الكاثر المكلف المسئول

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۚ ﴾

﴿ وَتَصْعُقُ السَّوَابِغُ انْقِطَاعَ يَوْمٍ أَنْفِئَةً فَلَا تُطْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾

« سورة الانبياء آية ١٤٧ »

﴿ يَوْمَ تَحْذَرُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَصَّرًا ﴾ « سورة آل عمران آية ١٣٠ »

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَفْتَ رَبِّكَ الْكَرِيمَ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

« سورة الانفطار آية ١ - ١٨ »

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ رُوِّحَتْ ⑧ وَإِذَا النُّفُوسُ رُدُّوا ⑨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑪ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُجِّرَتْ ⑬ وَإِذَا الْجِبَةُ أُزْلِفَتْ ⑭ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْصِرَتْ ﴾ « سورة التكاوير آية ٧ - ١٤ »

وحملة ما قيل في معنى « النفوس روجت » أنها ترون عقوباتها وأعمالها أو تنصم إلى أشباهها وقرنائها

فحساب النفس من حساب الإنسان ، ولكن الدات الإنسانية أعم من النفس ومن العقل ومن الروح حين تذكر كل مبدء على حدة ، فإن الإنسان يحاسب نفسه لسيماها عن هوه ، ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم الإنسان منه إلا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القويين فهو وارع الحرية ويستشهم عدايه الروح ومعنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في دات الإنسانية ، وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتغيير الإنسان منزلة الكائن المسئول .

فالإنسان يعمل على نفسه بعقله ، ويعمل على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى العرائر الحيوانية ودواعي الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعدم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام

الأمانة

وردت كلمة الأمانة والأمانات في خمسة مواضع من القرآن الكريم ، ولكنها بالمعنى الذى يفيد لثبته والعهد والميثاقية وحصصت هذا المعنى في آية من «سورة البقرة» بوجوه امان وما إليه . إذ قال تعالى في سياق وثائق الديون .

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَكُونُوا مِمَّنْ أَوْعَدَ اللَّهُ نَجْعًا لَّكُمْ فِي شَأْنِكُمْ فَلَتُحْرِضُوهُنَّ لَأَمَّا لَكُمْ فِيهِنَّ كَلِمَاتٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهُنَّ يَسْتَأْذِنُ بَعْضُهُنَّ مِنَ الْبَعْضِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ۚ ﴾

إلى قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَمَرَ نَعْصَكُمْ نَعْصًا فَلْيُؤْذَ الْاَدَىٰ أَوْعَدَ مِنْهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ ۚ ﴾

« سورة البقرة آية ٢٨٢ ، ٢٨٣ »

في هذه الآية خصصت الأمانة بما يؤتمر عليه المرء من الودائع والديون ، ولكننا لا نخرج من الآية بغير التذكير المؤكد بمعنى الأمانة العامة ، وهي الحق والعريضة وسها حتى لعلم وفريضته ، فلا يجوز لمن علم علما أن ينسى حقه :

﴿ أَلَا يَأْتِيَنَّكَ أَنَّ كُتِبَ عَلَيْكَ ۚ ﴾ « سورة البقرة آية ٢٨٢ »

وكل ماورد في غير سياق الديون والودائع فالحكم فيه عام وإن ورد على سبب خاص ، لأن منسبات انزول لا تمنع سريان الحكم والتبليغ إلى جميع المصطفين بآيات الكتاب .

جاء في سورة النساء :

﴿ إِنْ لَّمْ يَجِدْكَ يَٰمُرُؤٌكَ أَوْ تُوَدُّهُ أَلَامَنَّتْ بِأَنِّ أَهْبَاهَا وَإِذَا حَكَمْتُ بَيْنَ أَتَّاسٍ أُنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ ﴾

« سورة النساء آية ٥٨ »

قال الامام الزمخشري في الكشف : «الخطاب عام لكن لكل أحد في كل أمانة وميل: نزلت في عثمان بن طلحة بن عبد لدار ، وكان سادن الكعبة ، ودلت إن رسول

له صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة يوم الفتح أعلق عثمان باب الكعبة وصعد
السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه وهذا . «تو علمت أنه رسول الله لم أمعه» فلو
عنى بن أبي طالب رضى الله عنه يده وأحده منه وفتح ، ودخل رسول الله صلى الله
عليه وسلم وصلى ركعتين . فما حرج سألته لعاس أن يعطيه المفتاح ويجمع له استجابة
والسنة . فنزلت الآية : فأمر علياً أن يرده إلى عثمان ويعتذر إليه ، فقد عثمان
لعلى . «أكرهت وأديت ثم حثت ترفق ؟» فقال . «لقد أنزل الله في شأنك قرآناً» .
وقرأ على الآية فقد عثمان : «شهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول
الله ..»

ومضى الإمام الزمخشري في تفسير الآية إلى أن قال «وقيل هو حصاب لولاه
بأداء الأمانات والحكم بالعدل ، وقرىء الأمانة على التوحيد»
وفي الحلالين أن الآية «وإن وردت على سبب خاص معمولها معتبر بقريته
الجمع» .

ويقول الأستاذ الإمام لنسب محمد عبده . «إن الظاهر أنها نزلت قبل فتح مكة
وأن النبي عليه السلام تلاها استشهاداً»

ومن تفسيرات المتأخرين تفسير الخواهر نشيخ طنطاوى جوهرى يقول : «الأمانة
«كل ما يؤتمن عليه من قلوب ، أو عمل ، أو مال ، أو عجم ، وبالجملة كل ما يكون
عند الإنسان من نعم لئى تهيد نفسه وعييره» وإن الخطاب موجه إلى الناس عامة
وإن الأحكام وولاية الأمور

وكذلك الأمانات والعهد فيما ورد في سورة المؤمنين :

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ «سورة المؤمنون آية ٨»

فهى تشمل كل ما يرعاه الإنسان من عهد ودية وهذا هو معنى الأمانات في
سورة الأنعام ، وعلى هذا المعنى إجمالاً - يفهم كل تبليغ حوطف به الناس
عامة وإن نزلت به الآيات لماسة حصه

أما لأمانة لئى عرصت على الخلق عامة ، فحملها الإنسان ولم يحملها أحد من

حقيقه ، ههه أعم من المناسبات الخاصة والمناسبات العامه بالنسبة إلى أحكام التسبيح ، لأن الأمر فيها أمر التكوين والاستعداد بالمطره التي هطر عهها العاقل وغير العاقل واستعدادها الحى وغير الحى ، والمطرب بالتسبيح وغير المطرب . وفى هذا الموضع من القرآن الكريم ذكرت هذه لمطره مقرونة بمطره الخليفة كلها ، وذكرت ومعها صفة الاسان التي تخصه بين عامة المخلوقات حين يتقبل أعلاه وحملها ، وما كان ليحملها إلا أن يتعرض لتعاتها فهو ظلوم جهول ظلوم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التي تهديه إلى عملها وما من كائن غير الكائن العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذي يتعداه ولا تباط به معرفة الحدود . وهى يوصف بالظلم والجهل من يصح أن يوصف بالعدن والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده فى الحالى

قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
سورة الاحزاب آيه ٧٢

وذكرت هذه المطره الانسانية فى موضع آخر من الكتب ، مع ذكر تكريم الاسان وولايته رمام الكائنات مفصلا على كثير من المخلوقات ، فقال تعالى فى سورة الاسراء

﴿ وَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي آثَرٍ وَأَنْخَرُوا رِجْلَهُمْ مِنْ أَلْطِيفَتِ وَعَصَيْنَاهُمْ عَنْ كَثِيرٍ زَمَّ حَقًّا نَقِصِيلًا ﴾
سورة الاسراء آيه ٧٠

وكثير من خلقنا فى هذه الآية تشمل كل مخلوق لم بكر أهلا لأمانة خير والشر أو لأمانة التكيف ، كما أودع فيه من مطره التكوين .

• • •

ولقد وصح معنى « الأمانة » فى هذا الحكم العام وصوحا لا يقلق اللبس أو

الانحراف بانهم عن جوهره المقصود ، وهو التكليف ، ثم م يذكره من المفسرين
نصه ، ذكره بمقتضياته ومتعلقاته ، وهي ملازمة له لا تنفك عنه ..

وهذه أمثلة من أقوال المفسرين الذين نادوا بالرواية بالمعنى الذى فهم من
كلمة الأمانة منذ صدر الاسلام الى القرن الرابع عشر للهجرة

قال الامام الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ للهجرة . « يريد بالأمانة الطاعة بمعظم
أمرها ومحرشاتها ، ويراد بها الطاعة لأنها لازمة الوجود كما أن الأمانة لازمة الأداء ،
وعرضها على الجهادات وريائها وإشفاقها محار ، وأما حمل الأمانة من قولك فلان
حامل للأمانة أو محمل لها ، تريد أنه لا يؤديها إلى صاحبها حتى تقول عن دمه
ويخرج من عهدها »

وقال الفيلسوف الفخر الرازى المتوفى سنة ست وستائة للهجرة - « إنا عرضنا
الأمانة أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من
التكليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والحبل والسماء كلها على ما
خلقت عليه الحبل لا يطلب منه السير ، والأرض لا يطلب منها الصعود ولا من
السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة ، لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين مهين عن أشياء
لكن ذلك هم كالأكل والشرب لنا ، فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتمل
الإنسان بأمر موافق لطبعه ... »

قال الإمام الفيلسوف فى تفسير حمل الأمانة « لم يكن رياءهم كعباءة ، وليس فى
قوله تعالى : « أبنى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما أن هذا تسجود
كان فرضا ، وهذا الأمانة كانت فرضا ، وثانيهما أن الإباء كان هذا استكبارا وهذا
هنا استصعارا . استصعروا أنفسهم ، بدليل قوله تعالى « وأشفق منى » . وقال
بعضهم فى تفسير الآية إن المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من
يدرك الكل والجزئى مثل لآدمى ، ومنه من يدرك الجزئى كإبهاثم تدرك الشجر الذى
تأكله ولا تفكر فى عواقب الأمور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك
الكل ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لدقة الجماع والأمكن . قانوا .

وبلى هـ أشار الله تعالى بقوله « ثم عرّضهم على الملائكة فقال استأوني بأسماء هؤلاء » ، فاعتروها بعدم علمهم بتلك الخزيات ، والتكليف لم يكن إلا على مدرك لأمرين : إحداهن أن الأمر حرثة فمع ما لتحصيل لذات حقيقته هي مثل لذة ملائكة عبادة الله ومعرفته ، وأما غيره فإن كان مكلف يكون مكلفا لا بمعنى الأمر به فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فإن الخطاب يسمى مكلفا كما أن الخطاب مكلف ... » .

وقال الإمام ابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ للهجرة . « ... عن ابن عباس . يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم . إني قد عرضت الأمانة على السماوات والأرض والحبال فلم يطقها .. فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب .. وما فيها ؟ قال . إن أحسنت جريت وإن أسأت عوقبت ، فأخذه آدم فتحمّلها .. وقال على بن أبي طحمة عن ابن عباس - الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السماوات والأرض والحبال ، أن أدوها أثامهم وإن صيعوها عدسهم فكروها ذلك وأشمقوا من غير معصية ، ولكن تعظيما للدين الله ألا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

« قال مجاهد وسعيد بن حدير والخمس المصري وغير واحد أن الأمانة هي الفرائض . ثم أورد الإمام ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها . وعقب عليها قائلا إنها كلها ، لا تنافي بينها . بل هي متفقة ورجعة إلى أنها التكليف وقول لأوامر والنواهي بشرطها »

* * *

وجاء في تفسير الإمام السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة « إن عرضنا الأمانة ، الصلوات وغيرها ، من فعلها له الثواب ومن تركها عليه العقاب » وقال الإمام محمد جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٣٢ للهجرة . « غير أنها بالأمانة نسبها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى للكافرين .

و تتمهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحس الصدقة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها
 وحفظها عينا وأدائها من غير إحلال بشئ من حقوقها ، ومعنى الآية أن تلك الأمانة
 في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام نعظام التي هي مثل في القوة
 ولشدة مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأبى قبولها وأشغقت بها أم
 قوته تعالى وحملها الإنسان أى عبد عرضها عليه ، إما باعتبارها بالاضافة إلى
 استعدادها ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق أى تكليفها وتزامنها مع ما فيه من ضعف
 السية ورخاوة لفوة ، وهو إما عدرة عن قبولها ما بموجب استعدادها الفطرى ، أو من
 اعتباره بقوله ' بنى . وقوله تعالى إنه كان ظلوما جهولا اعتراض وسط بين الحمل
 وعديته بالإيمان من أول الأمر بعدم وفائه عما عهده وحمله ، أى إنه كان مضطرا في
 اعظم مآلعا في جهل ، أى بحسب عبد أفردته الدين لم يعمنوا بموجب فطرته
 اسديمة.. »

» * *

ونقل صاحب تفسير الخواهر رسة هذه المعنى ، ثم نقل تفسير الميرزا مكي لمعنى
 حمل الأمانة ، إذ قال « فأين أن يحملها وحملها الإنسان ، أى أين أن يحملها
 وحملها الإنسان » قال : والإنسان هنا هو الكافر والمدفق . »

» * *

ولا يخفى هذه المقننات قبل أن يعود إلى الاستدراك اسى بأناها به ، وهو
 الاتفاق على معنى التكليف ، وأن الاختلاف على المدام التي تربت عليه ؛ بما هو
 دليل على معنى الاستعداد الفطرى للمدام وما عداها ، أو على معنى توقع في
 اندمه بمحاورة حدود التكليف ، طمنا مع العلم بها وجهلا مع بقدره على التعلم
 والاسترشاد في أمرها

إلا أن معنى الاستعداد الفطرى لا يخفى إذا روجعت الآيات التي ورد فيها ذكر
 صفات « الإنسان » معنى حسن الإنسان فإنه يذكى هذه الصفات في مواضع كثيرة
 مع ذكر آيات التكوين والخلق وتصريف قوى الطبيعة ، فقد ذكر تكريم نبي آدم مع
 لسلطان على ابن وانحر والزرع والصرع والتحصين على كثير من حلائق الله ، وذكر

طعم الإنسان وجهه مع امرأته بالمصرة المستعدة بالتكليف بين خلق السماوات والأرض ، وذكر في غير هاتين الآيتين لقوة للخير والشر مع الإيمان بالجزاء والتذكير بخلق النيل والنهار وحيرات لأرض وحساب الأفلاك ، ومن ذلك وفيه الإشارة إلى أمته من الآيات :

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ
بِالْخَيْرِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَذُولًا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِلنَّاسِ ۚ آيَةً
الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً يَتَنَفَّسُوا فِيهَا ۚ فَصَلُّوا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّاعَةِ
وَالْحَسْبُ رَكْعَتَانِ ۚ وَفَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝ ﴾

فقد ذكرت هه ههزة الاستعداد للحير والشر مع ذكر الايمان بالخراء وتصريف الليل والنهار ، وعجلة الامسان على حساب العواقب وهو اهل للحساب ، حساب النهد والعائب ، وحساب النور ولطلام وحساب السنين والامام .

التَّكْلِيفُ وَالْجُرَّةُ

من شروط التكليف طاعة وحرية . .

وهذه بديهية يعمل عنها كثير من المجادلين في قضية القدر ، وفي قضية الإيمان ، وفي قضية التكليف والحرية ، فيقتصرون لسطر على شرط الحرية ويهملون شرط الطاعة كأنه مناقص سحراء وكأنه من اللازم عملاً أن يكون الحراء مقرون بالحرية المطلقة ، وهي في ذاتها مستحالة عملية بكل احتمال ينظر على الحال في فهم حق لا سبب . . من بحث عن الإيمان بالتكليف غير ناظر إلى شرط « طاعة » فلا حرم يصل عنه ولا ينتهي فيه إلى قرار ، لأنه يبحث عن شيء آخر ولا يبحث عن التكليف ولا عن الإيمان

في القرآن خطاب متكرر إلى العقل ، وبيان متكرر لحساب الإنسان لعقل على الخير والشر ، مع إسهاد الإرادة إليه في استحقاقه لنشأب وانعقاب

وفيه آيات صريحة بسد الإرادة إلى الله ، ونفرض له - سبحانه وتعالى - هو الخالق المقدر لدى يهدى الهدى والصلال ، ويعطى كل شيء خلقه ويهدى وهي آيات كثيرة مقصودة بالتكرار وإن لم تبلغ في الكثرة عند آيات الخطاب والتكليف ، وآيات التذكير بالعقل والنظر والتمييز والتصكير .

• • •

﴿ يَهْدِي اللَّهُ الْدِينَةَ امْوَءًا لِمَا أَحْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۖ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

سورة الفرقة آية ١٧٣

• • •

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۚ وَأَقِيمُوا دُءُوءَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿١٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾

سورة الاعراف آية ٢٩ - ٣٠

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي هُوَ فَوْقَ سَوَاءِ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾

سورة الأهل آية ١ - ٣

● ● ●

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ

۱۰ صورة ابراهيم آية ۶۱

☼ ☼ ☼

﴿بُيِّنَ لِلنَّاسِ أَنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾

۱۱ صورة ابراهيمية ۲۷ ۱

• • •

وكثرة الآيات هذه المعنى تبعه عن الدهر أن يكون فيها محن لتأويل غير معناه
لظواهر على اختلاف العبارة والمدة ، فمعناها الصاهر الذي لا تأويل فيه أن الله
سبحانه وتعالى هو المنعم لما يريد الذي يحق عباده ويخلق ما يعمون .

أق هذا تناقض في حكم العقل إذا نظرنا إلى الأمر كله نظرة المعتول ولم نقصر
إبطر من النصوص ، أو إن واجب الاعتقاد يقتضي هذه النصوص ؟ ..

إن الرجوع بالقضية إلى أسسها المحتملة على كل احتمال ، يبقى التناقض ، ويرى
كيف يكون هذا الاعتقاد « حلاً لمشكلة » من أسسها المفروضة جميعاً ، وخروجاً
من التناقض الذى ينزعمها على كل احتمال غير هذا الاحتمال

وليكن الانسان روحا وعقلا خلقه الله ، أرى ان تركيبا عارضا من تراكيب
المادة لم يخلق أحد ، حتى قول المؤمنين بإعادة محردة من الصكر والارادة

وہی کہ التکلیف لإرادہ من عند اللہ اویکن ضرورۃ من قضاء توقع لا یسطعہا
أمر ولا جہاد ..

فكيف تتصور العقل إرادة الإنسان على كل احتمال ؟

إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود . لأن إرادة إنسان واحد تنطبق
بغير قيد هي قيد لكل إنسان سواء ، وكيف يأتي هذا الأسس الواحد بارزته لمصلحة
منفردا بها بين أمثاله المقيدين ٩

أما أن يوجد الناس جميعا بإرادة مطلقة لكل منهم عن سواء ، فهذه هي
الإحالة العقلية في انقراض والتقدير قبل النصوص ١٠ إلى الاتحاد والتحقيق ..

فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله ، فحقق الناس مكلفين بغير إرادة لهم
شيء غير معقول وغير مقبول ، لأن سقوط التكليف لا معنى له في هذه الحالة إلا أن
يخلق الناس جميعا متشابهين متماثلين متساويين في العمل لصالح الذي يسبقون إليه ،
كما تنسق الآلات ، فلا فصل إذن للعقل على غير العقل ، ولا تمييز للإنسان على
الحيوان المحرد من الجنس ، فصلا عن الحيوان ..

فإذا، وحب تكليف الإنسان ، فالعقل الإنساني لا يوجهه إلا كما يسعى أن يوجب
على حالة واحدة لا سواء ، وهي حالة الإرادة المحبوبة بدورها فيه الخلق كما يسعى
أن تودع ، وهي لا يسعى أن تودع إلا على هذا الفرص الذي يدعو إليه القرآن .
إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما يسعى أن تكون في احتمال العقل المدرك
بميز الذي يبتدى بإذن الله لما احتموا فيه

ولا يشك إن حرية التي تخلق ليست بحرية فإن الحرية غير القيد سواء كانا
محبوقين أو مطبوعين وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز بينهما كما
تتباين قيمة المعدن نقيسا وغير نقيس ، وكلاهما محبوق أو مصسوع ، فإن صعب والآنية
الذهبية والآنية النحاسية لا يبنى قاعدة لأولى ولا يسوى بين الآيتين المصسوعتين
وليس في العقل شيء يسمى حرية مطبوعة تنوع على الحرية المحبوبة بالانطلاق من
جميع القيود لأن الانطلاق من جميع القيود غير معقول ، وغير موجود ..

* * *

وإذا وجدت للمخلوقات العقلة حرية أو وجدت لها إرادة ، فليرجع إلى العقل
لنرى كيف يتصوره العقل . أي عمل - وكيف تكون على احتمال واحد دون كل
احتمال ..

إنها لا تكون سواء في كل إنسان ، لأنها إما امتنع فيها خلاف القوة لم تمتنع فيه

خلاف لزمن ولعمر ، ولا خلاف المكان والجسد ، ولا خلاف نصغر والكبر ، ولا خلاف الحركة والجمود

وإذا امتنع بها كل هذا الخلاف فليست هي شيء ، إذ ليست الموجودات التي لم تتأخر ولم تتوحد بأشياء يقلها التصور ، بل هي عدم ينقطع عن الوجود ، أو كائن لا يتميز به ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة ، ولا ثوب ولا عقاب
فإد وجد المخلوق حراً ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف في حكم العقل
كيما كان حكم المصوح

وإذا قصي العقل بهذا دون سواء ، فالعقل هو الذي يتصور إرادة الله وإرادة الإنسان على احتمال واحد دون سواء .

وحكم الإيمان هو وحكم العقل مماثلان إذ كان كل ما عدا حرية « لايمان » فرضاً غير معقول بل غير موجود

* * *

وعن ذلك في حل من القول بكفاية العقل وحده لتلقى حطاب التكليف إذ كان المؤمن والمبلسوف معاً نذهبان بالعقل بين نقائص الفروض ، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل واعتماد العقل على لايمان
والانكار الخراف يوقع العقل في نقيضين ، وهو تعطيل للعقل أفصل له من كل تعطيل

ولما تاورت الخيرة في مسائل الايمان عامة من خطأ شائع بوجه أسس من المتدينين والمكرهين أن الايمان عن الدوام تسليم بما يأباه العقل وما يتقنه إذا تقله - وهو مضمض العين مكتوف اليد ، يشاوي منه النظر وترك الطر ، بلا اجتهد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يحور وما يجمع كل الامتناع

هذا إيمان يلقي العقل ويلقي به بعيداً إلى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار حواب .. فلما عقل ولا تصديق ، وإما تصديق ولا عقل صديق لا يجتمعان ..

* * *

والفرق بعيد بين لايمان الذي يلقي العقل ، ولايمان الذي يعمل فيه العقل عاية عنه ، ثم يعلم من ثم أين ينتهي وأين ينتدى الايمان ..

إن الإيمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده ، وليس نتيجة لاهله وإبطال وجوده ..

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة ، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالعقل عجزه ..

ولعمل يستطيع أن يعم بصورة الإيمان لأن إنكار هذه الضرورة نقبضة عقلية وليس بنقيضة للدين والعقيدة وحسب ، ولا مسيئ للعقل إلى الإيمان بوجوده كامل مطلق الكمال يصحح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الإيمان ولزومه مطلقا قبل لزومه هداية الضمير

فالموجود الذي يصحح أن يؤمن به هو وجود كامل أبدي ليست له حدود .
والموجود الذي ليست له حدود لا يحيط به إدراك العقل محدود
فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التي لا شك فيها ..

هي إحدى اثنتين .. إما إنكار جراف ، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقل .

الإنكار معناه أن مسب الإيمان الوحيد ، يكون هو النسب الوحيد لكل تعطيل
والإنكار الخراف يوقع العقل في نقيض ، (أهو تعطيل للعقل أفضل له من
لا إنكار .

* * *

إن الموجود لسرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذي نريده بالإيمان ،
وهذا هو حقه في إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته

ولكن العقل المحدود لا يحيط بالموجود المطلق الذي ليس له حدود
أفيعزل العقل إذن ؟ لا إيمان بهذا الموجود انطلق لأنه الموجود الذي يصح في
العقل أن يؤمن به وسبحث عنه ، ولا يصح في القول إيمان بغيره ؟
العقل لا يقول هذا ..

والعقل إذا قال بضرورة الإيمان على هذه الصفة ، وهذا الحق ، لم يكن قد ألقى
عمه وأطلق وجوده ، بل هو يبيع بذلك غاية عمله ، فهو عقل يريد عليه إيمان .

إن لعقل الذى يزيد عليه الايمان ، هو العقل الذى حاصه القرآن بالتكليف . أو هو العقل المؤمن الذى تعينه النبوة بالتذكير والتبشير . وهو المسئول أن يستمع إلى النبي المرسل من عدم العيب ، فلا معذرة له بعد حجة العيب والتسليم ، وبعد حجة الشهادة والتكمير

* * *

ومع التسليم بهذا الموجود الكامل ، لا يعرف عقل الانسان تكليف غير التكليف الذى تسطته بصوص القرآن ، فلا معنى للتكليف أصلاً إن لم تكن فيه طاعة وحرية . ولا معنى للحرية من وراء إرادة الخلق وإرادة المخلوق

أُسْرَةٌ وَاحِدَةٌ

حيل إلى علماء القرن السابع عشر من لغريين أنهم مطالبون بتعريف كتاب تعلم من الألف إلى الياء ، وأن تعريف شيء من الأشياء بأنه من صفات الفروع الوسطى كاف لرفضه وإعادة بحثه ثم إعادته إلى الاصطلاح عدلون جديد

وأور هذه التعريفات المشدلة تعريف الإنسان حسب موضعه من هذا العالم ، لأن الإنسان م برل في كل عصر ، وفي كل علم ، وفي كل عقيدة ، مقياسا لما عداه من حقائق هذا العالم ، بل مقياسا للعالم أجمع ، تشدل ليطر إليه كما تشد النظر إلى انوجود بأسره

ولم يتبدل النظر إلى مركز الكرة الأرضية من الأجرام السماوية ، حتى حيل إلى كثير من الصكيين وخرافيين أن حقائق السماوات والأرضين قد تغيرت لأن الكرة الأرضية مركز الإنسان .

وقد أعيد النظر إلى مكان الإنسان من الحقيقة كلها ، موضعه عنداء الحيوان عوصع واحد مع طبقة الأحياء التي عرعرها باسم الأرائل Primates وهي في الدررة من طبقات الحيوان اللبون .

وأعيد « تصنيف » هذا النوع الحيواني فذهب بعضهم بعيدا في تقسيمه إلى عناصر ، وإلى الرجوع بكل عصر منها إلى نوع من القررة الأوائل ، كما سيجيء في الكلام على آراء النشويين القائمين بالتطور والارتقاء

ولديي قالوا إنه نوع واحد لم يرتانوا في تقسيمه إلى عناصر أو سلالات تكدد - لولا التامل فيها بيها أن تعتبر أنواعا مستقلة بزاكيب أنداءها وعقوها ، بل قال بعضهم إن محارب العلم لم تثبت إمكان التماس بيها ، ولم تبق إمكان التماس بين بعضها وبعض أنواع القررة مشاهة لبشرية ، ويجب أن تشهل قللا قل تتحقق من أن السلالات الإنسانية كلها قابة للوائد ههما بيها ، كما يتوالد ذكور الحيوان وراثته من النوع الواحد بغير عائق لسمو في دور الحمل ودور النطفولة

والدين دعوا باختلاف لعناصر والسلالات ، لم يقنعوا بالقبيل من هوارق هذا الاختلاف . فهم من كاد يجعل اسلانة « الآريه » نوعا « سيكولوجيا » بصارع النوع « انبيولوجى » فى الاختلاف وفى قلبية « لتفاهم » والتعامل ، و « تامل » العواطف والأفكار

وعدوا ، بعد الحرب العمدية الثانية إلى التراجع السريع فى هذا « التصنيف » الذى حيل إلى أصحابه قبل جيل واحد أنه حقيقة واقعة تستعنى بالنظر عن البرهان ، وما كانوا يسرعوا هذا الاسراع فى التراجع لولا بلاء « لاسانة » عواقب ذلك « التصنيف » الويل ، لأنه التصنيف الذى سوع لعصر من لعناصر أن يسبح السيدة على الأمم عبوة ، وأن يستكثر حق الآدمية على تلك الأمم التى لم يلحظها معه فى قرابة الانسان للانسان ..

فمن كبار علماء الأنواع فى العصر الحاضر من يقول ، كما جاء فى كتاب « قرن من مذهب داروين » : إن التفرقة بين عناصر النوع الإنسانى اعتساف أو توسع فى التعبير ، فقد قسم النوع الإنسانى إلى عشرين كبيرين يسكن أحدهما فى القارتين الآسيوية والأوربية والأمريكيتين ، ويسكن الآخر فى إفريقية وبلاد الدلايا والقاره الأسترالية فإذا أردت لمزيد من الحصر فقد قسمها حسب الألوان إلى بيضاء وصفرى وحمراء وسوداء وسمرى . ويريد حصرها فبلغ ٣٠ ثلاثين ، ولا يجد أن يجمعهم مائتين إلا صعوبة التفاهم على هذا التقسيم .

فحوى هذا أن هوارق العناصر هوارق أسماء وعناوين ، وأن « الانسان » أسرة واحدة على تعدد أبنائها وتعدد أقسامها واختلاف الألقاب اللعوبة التى تطلق على تلك الأقسام

* * *

فحوى هذا أن القرآن قد وضع الانسان - علما ودينا - فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه الصحيح إنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفصل بين الاحوة فيها بغير العمل لصالح ، وبغير التقوى

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَحَصَّنَاكُمْ شُعُونًَا وَقَبَائِلَ
لِنَعَارِفُوهُمْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

« سورة الحجرات آية ١٣ »

وقد سميهم باصطلاح الأسماء « أما » كثيرة كلها تناعدت بينهم الوطن ومحبتهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد واللغات ، ولكنهم قبل هذا لاختلاف أمة واحدة لها إله واحد : هو رب العالمين

• • •

فإذا كانوا قد تعددوا شعوبا ومثائل كما جاء في الآية شريفة ، فإنما كان هذا التعدد أقوى الأسباب للاحكام صفة لتعارف بينها وتعريف « الانسانية » كلها بأسرار خلقها .. فان تعدد الشعوب والقبايل يعدد المصاعف والحيل لاستخراج كنوز لأرض واستسائط أدوات الصناعة ، على حسب الموقع والأرمنة ، وعلى حسب الملكات والعادات التي تمتنع عنها ضرورات العيش والدود عن الحياة فيسجم عن هذا ما لا بد أن يسجم عنه من تعدد الحصادات وأقارب الثقافة ، وتزداد « الانسانية » عرفانا بأسرار خلقها ، وعرفانا بحالقتها ، واقتربا فيها بينها ، وتصطبرا إليه اضطرابا لما تحسه من اشتباك منافعها وسريان الضرر من قريبها إلى بعيدها

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْبَشَرِ وَالْأَنْثَىٰ وَتَوَاتُرُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾

« سورة الروم آية ٢٢ »

وهذا هو حكم القرآن في وحدة بني الإنسان ، وفي تدعيم هذه الوحدة ، في بحسبه الناظر التحصيل ما من أبواب الافراق والتباين ، وهو تعدد الشعوب والقبايل واختلاف اللغات والألوان :

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَفَعُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَقَّتْ مِنْ رَبِّكَ
نَفْصِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَحْتَصِلُونَ ﴾

« سورة يونس آية ١٩ »

• • •

﴿كَانَ الْإِنْسَانُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾

سورة البقرة آية ٢١٣

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الْإِنْسَانَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

سورة هود آية ١١٨

﴿وَيَوْسُفُ أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا خُذُوا حَقَّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَاسْكُرُوا آلِبَتَكُمْ فِي مَاءٍ تَنَكَّرُ
فَأَسْمِعُوا الْخَيْرَاتِ﴾

سورة المائدة آية ٤٨

إن هذه الوحدة في صفة الأساس مشدودة الأزر بالوحدة بين الناس كافة في
الصفة بالله ربهم ورب العالمين - الذي يسوى بينهم ويديهم بالرحمة
والإنصاف ، ثم لا يقصى بينهم فيما احتلوه فيه ، لا يقصد من العدل ، أيهم أحسن
عملا وأقرب إلى التقوى وامتثال الخيرات .

﴿وَاللَّهُكَ إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

سورة الفرة آية ١٦٣

﴿قُلْ إِنَّمَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَتَمَّا إِلَهُكُمْ إِنَّهُ وَاحِدٌ قَدْ كَانَ
يَرْحُوا بَقَاءَ رَبِّهِ ، فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

سورة الكهف آية ١١٠

﴿إِنْ هَدَيْتُمْ أَتَمَّكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾

سورة الأنبياء آية ٩٢

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أَتَمَّا إِلَهُكُمْ إِنَّهُ وَاحِدٌ قَدْ هَلْ أَتَمَّ مُسْلِمُونَ﴾

سورة الأنبياء آية ١٠٨

ونقد كان من الحق في دمة العم أن يترث علماء العقيدة بين الأدباء صريلا ،
عند هذه المرحلة العظمى في تاريخ العقيدة ، وفي تاريخ الفكر ، وفي تاريخ القيم
لأخلاقه ، بل في تاريخ الحياة الأساسية من مصورها في حياتها وصيها المجهول في
هد الأوج المسمى الذي ارتفعت إليه بعد ألوف السنين . وما كانت لترفع إليه
بمثل ولا عقيدة عبر العقيدة في رب واحد هو رب العالمين

فيها لم تكن كلمه في موضع كنهه ، ولم تكن صفة من صفات لتقديس بديلا
من صفة مثله ، ولم تكن رمية من غير رم على لسان ناسك دهل يقول في تسبيح
المعبود كيف يقول ..

فيها لم تكن لفة من لفتات الساعة ، تهيم بأسطر انشاد في تيه من لسكر
والكهانة ، ثم لا تنأى أن تعود إلى حلقها كما تعود إلى أمامها ، على غير هدى ..
لو كانت كذلك لدهست في عمر الكلمات والأوهام ، ولم يبال من لفظها أو
استمع إليها أن يعيدها مرتين ..

ولكنها كانت قبله يستلها الأسس على سواء لم يكن بالعه لو لم يعتدل إليه في
مطلع الطريق ، وهبات - على غير هذه النقطة - أن يتنظم للإنسان مسلك معقول
إلى الرشد والصير ..

إن قيم الأعمال والأخلاق ، لا تقوم ها مع الأبدان برب هو رب هذا القليل أو
هذا الشعب ، بين من خلق الله من قائل لا تختارها وشعوب لا ينتظر إليها

وإن هذه القيم لغو عند إنسان يحق لهم لذب وما اقترعوه ، ويهبط عليهم
العفراء وما صعدوا إليه وينقلبون بين أسقمة والنعمه بعير جريرة من إثم وبغير شفاعه
من توبة وبعمية للإساءة ولا ية لتكفر

إن العالم الإنساني كلمة غير مفهومه عند من يدين برب غير رب العالمين ، وإن
قيم الأخلاق كليل جراف حين تنقطع الأسباب بين الحسنة والسيئات وبين الثواب
والعقاب ، وإن « الإنسانية » الجامعة شيء لا وجود له قبل أن يوجد « الإنسان
المستثنى »

وإما توجد « الإنسانية الواحدة » ويتساوى الإنسان والإنسان مع الإله الواحد
الأحد ، رب الناس ورب العالمين أجمعين ، أفضلهم عنده أنقاهم وأصلحهم
وأسبقهم إلى الخيرات .

وما التقوى ؟ ..

التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يرح الضمير .

وأقدر لناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على الهوى بالشبهة ، وأعرفهم
بمراضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور

والإنسان التقي مرة أخرى هو الإنسان « الإنسان »

ما هذه تقوى تتي يتعلق بها كل فصل لإنسان عند رب العالمين ؟
لو شاء فلاسفة لأحلاق لعمرو ما هي هذه التقوى ، وعمرو حقا أن موارينهم
جميعا لا تحس الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه
« التقوى » التي يحسوها « تسسحة » من تسسح المعاد ، وتحمل إليهم أنها أمثل من
أن تنفع العالم المحقق في مقام الموازنة والتفضيل . ليس بين فاضل ومفضول قط
من رجحان غير رجحان الأفضل في القدرة على الشئمة ، بما طلب هم من ألون
الشعاع .

هي موضع الرجحان للعالم على الخامل ، وللرشيد على بناصر ، وللدكي على
الغبى ، وللقادر على العاقر ، وللمهذب على العدم ، وللمجذود على المحروم ،
وللعلى على النقص ، ونسب على العبد ، ولحاكم على المحكوم ، ولصاحب الحق
المكين على صاحب الخلق الهزيل ، ولكل فاضل - بالإيجاز - على كل مفصول
وما من ميران آخر يتبع فلاسفة لأحلاق في طائفة من هذه الخصال ، إلا حادهم
في طائفة غيرها . بل في أكثرها وأحوجها إلى المورنة والتفصيل

فبيست « حمة » الإنسان ماثلة في تفصيل العناء على الجهلاء أو الرشدين على
النقص ، أو الأدباء على الأغبياء أو غير هؤلاء على غير هؤلاء من الفاضلين على
المفصولين . فإن العالم بفضل الخامل « لعلم ولا مرء » ولكنه قد يؤوب مفصولا عند
المقابلة بينهما في باب من أبواب الخبرة أو رعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل

راجع وكل مرجوح غير ان المال أو السب أو الخلاق واعداد و لكننا إذا حكمتنا بأن إنسانا يعصل إنسانا بالقدرة على تحمل النبت ، فهو الراجع لا مرء في كل ميران من موارد المتاضلة بين بني الإنسان ، وكل قيمة تحسب للإنسان فهي داخلية في هذا الحساب ، فإن جرد أن تحمل ويبقى الإنسان بعدها أهلا لمرجحات بالتبعات فهي مهمة حقا ولو كان لها شأنها في غير هذا الإنسان ..

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ ﴾ « سريرة الحجرات آية ١٣ »

صدق لله العظيم إنه هو القسطاس الذي يشيء « بالنسبة » حقوق المساواة بين أبنائها دبا وعيا وفلسفة وشرعية وإلهام من لوحى الإلهي وتمحيصا من لطيفة الانسانية

ومكان الوحي الإلهي في هذه المساواة أب قد شرعت للإنسان شريعتها حقا من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من وسائل الحكم وإجراء من إجراءات السياسة في ديان الخطر المطلق حيطة من ثورة النفوس وتنافس على عند لأصوات في معارك الانتخاب . فان أحدا ممن خوهم القرآن تلك المساواة لم يظلمها ولم يكن لبئالها قبل أن ترون عليه من وحي رب العالمين وبكتها ثم تنشأ في حصاره من حصار ت العالم القديم أو الحديث الا كان وراءه حيلة أو وسيلة سياسة أو مراوعة تملق وتسكين ، ولولا حروب أثينا واسبرطة ، وحروب رومة وفارس ، وحروب الأمم في القرن العشرين ، « سمع » ديموس « بشيء » يسمى الديمقراطية ولا رضى « الديموقراطيون » المتأخرون بشيء - لدوى الماويل ومناحل أو للموى الألوان محدين للمصانع والمصكرات ولا سمع العالم مساواة بين بني آدم لا فصل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله

آدم

قصة آدم عليه السلام في القرآن هي قصة الانسان الأول .
 مخلوق من تراب . وارتقى بالمخلوق السوى إلى منزلة العقل والإرادة .
 وبعلم من الأسماء فضلا من العلم ميره على خللاق الأرض ، من دى حياة وعبر
 دى حياة .
 وقصى له أن يكسب فضله بمجهده ، وأن يكون جهده علبة لأرادته وانتصارا
 لعقده على جسده

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفينا لقرآن في هذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢)
 ﴿ ذَٰلِكَ عَلِيمٌ الْعَبِيدُ وَالشَّهَادَةُ الْعَرَبُ أَرْحِمُ ﴾ (الذي أحسن كل شيء
 حقيقه وبدأ خلق الإنسان من طين) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾
 ﴿ ثُمَّ نَسَوْنَاهُ فَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ (سورة السجدة آية ٦ ٩)

﴿ وَذَقَاب رِبْكَ لِلْمَلِكِ فَإِنْ خِفَقَ شَرٌّ مِنْ عَصَلِي مِنْ حَمِي مَسُونِ ﴿٢٨﴾
فَادَا سَوِيَّتَهُ وَنَعَمَتْ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاحِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَعَدَ الْمَلِكُ
كُلُّهُمْ خَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَيْ لَا يَكُونُ مَعَ السَّاحِدِينَ ﴾

(سورة الحجر آية ٢٨ - ٣١)

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّیْ جَاعِلٌ فِی الْاَرْضِ حَبِیۡطًا ۚ عَلَوْا۟ اَتَّخِذُ فِیۡهَا مَن
یُّفْسِدُ فِیۡهَا وَیُسَبِّحُ اِلٰهَیَّاءَ وَنَحْمُ سُبْحٰنَ تَحْمِیۡدِكَ وَتَقَدِّسُ لَكَ اِنِّیْ عَلِمُ
مَا لَا تَعْلَمُوۡنَ ۚ وَعَلَّمَ اٰدَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَی الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُوۡنِیْ

بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ سَاءَ لَا مَعْلَمَةَ
 بِكِتَابِكَ الْعَلِيمِ ﴿٣١﴾ قَدْ يَتَذَكَّرُ أُنْيُسُ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَبَّ أَسْمَاءَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
 قَالَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُدْعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
 ﴿٣٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
 الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ وَقُلْنَا يَتَذَكَّرُ أُنْكُرَ أَنْتَ وَرَوْحُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَامُهَا رَعَدٌ حَيْثُ
 مَسْتَمًا وَلَا تَفْرَا هَذِهِ الشَّجَرَةُ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَرْحَمَا الشَّيْطَانُ عَمَّا
 فَأَرْحَمَا مِنْ كَانَتْ فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا نَعَصْكَ لِيَعْبُدَنَّكَ وَالْكَرَّ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا
 وَمَتَعًا إِنَّ جَهَنَّمَ أَهْلًا فَتَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
 ﴿٣٥﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِنَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ (سورة البقرة آية ٣٠-٣٨)

هذه قصة « نشأة آدم » في القرآن .

وهي إحدى قصص الخلق والتكوين ، وفي هذه القصص جميعا من أمر العيب ما
 هو حق لا يبدن ، وفيها من أمر الحياة الانسانية ما يسعه خطاب البعض ، ويتقبله علم
 منه ، يوافق الايمان ، وهو العلم بقيم الحياة أو العلم « بالقيم » العليا في حياة الانسان
 وسائر الأحياء

ولدت القيم جميعا إن الفصيلة العليا إدارة ونخبة ، وليست مسحة يعطل بها
 التصرف ويمتدح فيها التمييز ..

وإذا جردنا من عالم التصور مخلوقا يعقل ، ولكنه يحس ويعجز عن الاساءة لأنه
 مصروف عنها ، ومخوقا تأتي منه الحسنة كما تأتي منه السيئة لأنه لا يميز بينها ولا
 يريد بها ، ومخلوقا تكلفه الحسنة جهدا ويريد بها لأنه يعرف فضلها ويصر على المشقة

في سبيلها . فنحن قد دهنا بالتصور عاية مذهبه لنقف عند قصة آدم والملائكة وما في الأرض ولسماء من خليقة ذات حياة أو غير ذات حياة .

وعليها أن نؤمن بالتصور مدى آخر ، وراء هذا المدى من توزيع الإنسان ، وذلك هو المدى لدى نطلع منه على : سياسة الخلق والتكوين ، على كل صورة من الصور مرة أخرى في احتمال العقل ، أو في احتمال الفرض والتقدير .

إن تعلم من سياسة الخلق إن الأجسام الحية نشأت على انكسار الأرضية قبل نشأة الإنسان . فكادت أن تسع مبيع الحال الصغار وثقل بعضها وزنا حتى أرى على مئات لأطيان ، ثم ميت لأنها قصرت عن ملكة التدبير التي تروى بها هذه الأجسام الصحاح . ولنا نعلم شيئا بغير السماع والالهام عن حقائق العقل التي تفردت فيها العقول عن الأبدان .

والعقل الانساني يأتي ان يصدق إن هذا الكون خبوء من معدن عقل إلا أن يست عرصا في جزء من مادة الأرض ، بعد نشوء الإنسان .

أقرب إلى تصديقه . ولا نقوب أقرب إلى إيمانه وكفى - أن سياسة الخلق ولتكوين نصرفت في تقدير العقول ، كما نصرفت في مقادير الأبدان إلى غاية ما تلعه من الصحاح معزل عن لعقل وعن فصائل التمييز

تلك سياسة الخلق التي أدت بتكائنات لعاقلة في عالم الروح أن تعلم مداها من ارق في معارج الحياة ، وأن تطلق الأمر بالسجود للقيمة المحددة التي تصرح عنها أستار العيب ، ويودعها الخلق هذا الكيان الموسوم بالإنسان

ومن بسببه الايمان أن تدع لدين حقه في تبليغ هذه النشأة إلى المؤمنين بالعيب ، وأن تدع للعقول حقها في وسعت من عيم ، وفيها وسعها من تعيم إن النشأة لأدمية في لقرآن هي طريق الحياة من لأرض إلى السماء ، أو هي طريق الكائن الخي من المادة الصماء إلى الخلق الحكيم .

ولا يأتي القرآن على مؤمن به أن يرسم مسلك الحياة من المبدأ إلى المصير على هذا لطريق الخلق البين ، لربه لعلى خادة في كل مكان يردها إلى الأرض ولا يقطعها عن الله .

الكتاب الثاني

الإنسانُ
في مذاهبِ العلمِ والفكرِ

عُمْرُ الْإِنْسَانِ

بدأ هذه الفصول عن الإنسان في مذهب العلم والفكر بفصل عام عن عمر الإنسان في هذا العلم ، لأن تقدير الزمن الذي مضى على ابتداء حياة النوع الإنساني مرتبط بكل بحث عن أصل الإنسان في جميع المذاهب ، ولا سيما مذهب نشوء أو التطور . وهو أول مذهب يتعين البحث فيه واستقراء ما يقرب عنه ، تأييدا ونفيًا ، في تقرير مكان الإنسان من هذا الوجود ومكانه بعد ذلك من عامة الأحياء . ونرى أن هذا المذهب أو المذاهب التي يتعين بحثها هذا ، لأنه أخرى أن يسمى « مذهب مذهب » وأن يدرس على سعة نخرجه من حدود المذهب الواحد الذي يقصر عن موضوعه الأصلي ، فإنه ما كاد يظهر وينتشر بين أصحاب الدراسات حتى عاد هؤلاء بحسب أسهم مطالون باعادة النظر في موضوعاتها للمقابلة بين قواعدها ومقرراتها قبل انتشار مذهب التطور وبعده . فكتبوا عن تطور العلم وتطور الفن وتطور الأدب وتطور السياسة وعن أنواع شتى من الدراسات ، يقال فيها اليوم غير ما قيل بالأمس تبعها لغوايين أو النظريات التي جاء بها نشوئيون .

وسيسط القوم في هذا المذهب على وجه خاص على قدر استطاع في حيز هذه رسالة . لأنه على كل فرض من الفروض دعوى في قصبة الإنسان يستمع إليها ولا تهمل كل الأهمال ، ولو اعتقد اسطر فيها - كما يعتقد - أنها تقوم على آراء لا ترم منها استبجة التي وصل إليها امشوثيون لزوء ختم ، ولكنها معلقة إلى حين . ولبدأ بالكلام فيما يلي عن عمر الإنسان بتقدير العلوم المعاصرة ، ولا نناقش بين شيء منه وبين شيء مما ورد في آيات القرآن .

لم يوجب القرآن على اسم مقدرا محدودا من السنين لخلق الكون أو لخلق الإنسان ، ولا يعلم أن ديانة من الديانات الكبرى التي يؤمن بها أبناء الحضارة عرست بتاريخ الحقيقة غير الديانتين البرهمية واليهودية .

والديانة البرهمية لا تقدر عمر الكون ، أو عمر الحياة ، بمقدار محدود من

النسب ، لأنها تحول بالدورة الأندية التي تتكرر فيها حياه الانسان مع حياه الكون
 بغير أحل معروف في البداية أو النهاية . وعند الرهيين أن لكون تلك كبير ، يتم
 دورته المتكررة مرة في كل ثلثائة وستين ألف سنة . وقد يراد هذا القدر أو ينقص في
 تفسيراتهم الدينية على حسب المقادير المصاعمة عندهم بدورة لشمسية ، وهي
 عندهم مثل صغير لدورة الكونية الكبرى ، كلما انتهت دورة بدأت دورة أخرى من
 دورات الوجود السرمدي عبدا على بدء إلى غير انتهاء

أم المصادر اليهودية ، فهي على حسب تحقيق الصفة الكبير « جيمس يوشر »
 اختوى سنة ١٥٩٦ ، تدل على بدء الخليقة في شهر أكتوبر سنة ٤٠٠٤ قبل
 ميلاد . وقد شرح أسابيدو التي بنى عليها هذا التقدير في كتاب صحم سماه

السجلات القديمة والمعهد الجديد Annales Veteris Novi Testamenti

وأضيف هذا التاريخ إلى نسخة التوراة التي ترجمت على عهد الملك « جيمس »
 وبما مشها تواريخ الحوادث المذكورة في متونها

وعلى هذا لتاريخ متصدا في طبعات التوراة المنقولة عن هذه النسخة ان المعهد
 لأحبر . ثم أجمع شراح الكتاب العصريون ، يهودا ومسيحيين على تقدير النسب
 والأيام التي وردت في صدد الكلام عن الخيفة بمقادير غير مقادير النسب والأيام
 الشمسية ، واستندوا إلى أن اليوم الشمسي وإن السنة الشمسية تساوى مدة دوران
 الأرض حول الشمس مرة واحدة ، فلا يمكن أن يكون اليوم من أيام الخيفة السنة
 يوما شمسي لأن الشمس نفسها خلقت في اليوم الرابع كما جاء في الاصحاح الأول
 من سفر التكوين . .

« وقال الله : لتكون أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات
 وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوار في جلد السماء لتسير على الأرض . وكان
 كذلك فعمل الله النورين العظيمين لنور الأكبر يحكم النهار ، والنور الأصغر
 يحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله في جلد السماء لتسير على الأرض ولتحكم على
 النهار والليل وتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء
 وكان صباح يوما رابعا »

واقصى القرن السابع عشر والثامن عشر دون أن يعرض لعلماء العرب ، من
 صاحب الدين أو العلم ، شئ يدعوهم إلى تقدير عمر للحليقة يزيد على ستين قرناً
 بحساب لسين الشمسية ، ثم تناهت الكشوف عن ظواهر الطبيعة كيفما تنازلتها
 انعموم الحديثة ، فتضاءلت هذه لقرون الستون حتى أصبحت كمنحة البصر الخاطئة
 بالقياس إلى أعمار الكائنات السماوية والأرضية ، بعد أن عرف العلماء حساب الزمن
 بدلالة بصوئية وتحققوا من النظر اليقين إلى بعض النكبات أهم يرونها الآن بعد أن
 مضت عن انطلاقي الشعاع منها ملايين من السنوات الشمسية ، ونين من تحقيق
 أعمار بعض الأشجار أنها نشت قبل ميلاد المسيح وقبل دعوة موسى الكليم وإبراهيم
 الخليل ، وتبين من بقايا النبات المتحجر أنه كان يمو على الأرض قبل مئات الآلاف
 من السنين ، وقامت تقديرات العم في قياس أعمار هذه الكائنات على معايير محقة لا
 تفل ثونا عن قياس الساعات بحركة الرمل أو لناء في الساعات الرملية والمائية ،
 لأنهم يسون هذه التقديرات على المعلوم المحقق من سرعة الاشعاع المعدل أو مدى
 الوقت اللازم لتحويل العناصر ، وأثر دث من معايير التي تصح بقياس عنها كما
 يصح العلم بمقدار الزمن أو الماء ومقدار الوقت اللازم لانصبابه في صندوقه قياسا
 لساعات النهار والليل ، وكما يصلح العلم بحركات الكواكب قياسا للسنين والشهور
 وقد اشتركت العلوم جميعا في اتحاد مقاييسها لتقدير أعمار الكائنات فقام الساق
 عمر الشجرة خلقت جذوعها ، وقاس الطبيعي أعمار النجار بمقادير الملح الذي
 أفرغته الأنهار فيها ، وقاس عام نطيمات الأرضية أعمار الصخور بتحول المعادن أو
 استقرار الرواسب ، أو ناشع العنصر أو بالأحافير المتحجرة من بقايا النبات
 والحيوان ، وكلها معايير معقولة توغل بأعمار بعض الكائنات رجوعا إلى دهور محسوبة
 بمئات الألوف من السنين . ونعم في انقدم حتى نحسب بمئات الملايين

“ “ “

وأحدث المقاييس انعمية التي تقاس بها عصور ما قبل التاريخ بقياس الكربون
 المشع بكربون (١٤) تميزا به من الكربون (١٢) المسمى بمقدار وزنه الذري .
 فان العالم الأمريكي « ويلارد بي » Willard Libby صاحب الدراسات

المانورة في الطبيعيات اسرية ، وجد - قبل منتصف القرن - أن نصف درات هـ الكربون تتحلل في الأجسام الحية خلال خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، يعمل فيها حساب فرق التقدير نحو ثلاثين سنة إلى الزيادة أو النقصان . فإذا جمع بقايا العظام أو الفحم الحجري ، فيمكن وزن ما فيها من كربون (١٤) وتقدير الزمن الذي انقضت فيه حياة الكائن الحي الذي تحنط عنه تلك البقايا على حسب لمقدار التحلل من ذلك الكربون . فإن كان هذا المقدار نصف ، فقد مات ذلك لكائن الحي قبل خمسة آلاف وخمسمائة وثمان وستين سنة ، وإذا كان ذلك المقدار ربعا فقد انتهت حياته قبل نحو أحد عشر ألفا ومائة وست وثلاثين سنة ، ويريد عدد القرون كلما نقصت نسبة البقية ساقية من الكربون (١٤) بالمقابلة بينه وبين الكربون (١٢) مع ذلك الفارق القليل الذي يحسب فيه لحساب الخطأ التقدير .

وهذه المقاييس لكثيرة التي تصبى حساب القرون كما يضبط حساب الأيام والليالي بالساعات الدقيقية والمائة - قبل تاريخ الانسان على الأرض راجعا إلى ألوف القرون بدلا من العشرات أو الآحاد ، ووضع علماء لطبقات والطبقات مقادير الأعمار المتداولة لكل طبقة من الطبقات الأرضية وحدت فيها بقايا الأحسام البشرية وقدرت للطبقة الحجرية ثلاثة أدوار بين عليا ووسطى وسفلى ، يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة ، ونسب إلى الطبقة العليا بقايا الإنسان التي وجدت في الأقاليم العربية من لقارة الأوربية ، وإلى نطمة الوسطى بقايا الإنسان التي وجدت في أواسط القارة ، وأقدم من هـ بقايا لاسان التي وجدت في لقارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا ، ومثلها في القدم أو أقدم منها بقايا الإنسان في أقاليم الجنوب الأفريقية

وتنخر البقايا الانسانية التي وجدت في لقارة الافريقية حمجمة ، وجاهد الدكتور « لبيكي » Leakey في شهر يوليوس سنة ١٩٥٩ ووجد معها بقايا حيوانات يظن الدكتور أن صاحب الحمجمة كان يصطادها لطعامه ، ويستخدم في صيدها أسلحة حجرية ووجد آثارها على مقربة منه ، وقد استقرت هذه الحفائر تحت بحري

«أوبدهي» تنجانيق وسمى هذا الإنسان باسم عمى معه الإنسان الربحي
Zinanthropus وبقوه في بدوائر العمية بنقب «كاسر الجورة» لصحافة فكاهة
وصروسية . ويقدرول تاريخه بحو ستائة ألف سنة على حسب قياس الزمن يتدث
للقاييس المتعددة ، ومنها حساب زمن التحجرو زمن تكوين الطبقة وزمن التطور في
تركيب العظام وزمن لبقاى التي تخلفت من عظام العث والأسنان .

وليس من المحقق أن يوعل التاريخ في القدم إلى كل تلك لأبوف من ليس .
ولكن محقق أن إبعاده إلى تلك الـ كنها أو ما هو أقدم منها ليس بالأمر المستعرب
في أقيسة زمن وأقيسة أعمار الحيد . سنة . بعد و صوح المحقق الثالثة عن قدم
تاريخ الخلقة من ضاهرها الأرضية وطورها السماوية على السواء .

والمحقق كدث أن الإنسان لقدم لدى دلت عليه تلك اسقيا ، كان يستخدم
الآلات الحجرية ، ويستعين في كهج أعدائه من الحيوانات الصارية بصيب من
الدكاء م يكن معهود في حيوان مـ . فهو في أقدم عهده ميم بالعقل والطق وهم
صفتان مسبيتان لا انفصال عن استخدام الآلة ولا عن الخاصة المميزة بحيوان
الناطق من اعتدال لقامة ومطوعة اليد للإرادة في حالات المشي والوقوف ، ولولا
دث . استطاع الإنسان أن يستخدم السلاح وأن يصعد لإصابة حيوانات الصارية
من بعيد . .

أما الإنسان في محتمعات الحضارة فلم يكشف . بعد . أن يبد على تاريخ له
قل عشرة آلاف سنة أو نحوها ، ومعنى ناسد الحضارة ذلك الإنسان الذي عرف
الشريعة ونظام معاملة وسخر الحيوان كم سحر العناصر الطبيعية في مصاحبه
المشتركة وقد وجدت في ودى النيل آثار الإنسان المقيم الذي كان يستخدم
الأدوات الحجرية ، ويعول على محاصيل الأرض في تدبير طعامه وأسباب معيشته ،
ولكن المتفق عليه أن هذا الإنسان لم يكن يعرف الكتابة وم تكن نقوشه على الحجر
من قيس الرموز المصطوح عيها لنقل الأفكار وتسجيل الوقائع . ولكنها أقرب إلى
طلاسم السحرية أو إلى أشكاف رينة . وهي على هذا - لتعتر مقدمة لارمة
شاة المزايا التي محقق اتصال وتكمل مصاحبا لدوام في ميدان الشارع

وليس لنا أن نأخذ مأخذ ليقين بروانات لأقدمين عن ماضيهم البعيد في حياة
ثقافتهم واخصاصة الرقعة ، ولكننا روايات لا تهمل في صدد الكلام عن تاريخ
الأسباب وليس لنا كذلك أن نقصها بغير دليل .

كان هيرودوت - الملقب بأبي التاريخ - يعيش في القرن الخامس قبل الميلاد ،
وهو يروي في كتابه الثاني عن كهنة المرمنة أنهم يقدرون تاريخ النبوة من عهد
ملكها الأول ثلثمائة وواحد وأربعين جيلا ، أي نحو أحد عشر ألف سنة على
حساب ثلاثة أجيال لكل قرن واحد ، ويعتقد بعض الباحثين محدثين أنه تقدير غير
مناسب فيه ، وأن مواقع بعض الهياكل تدل على انقضاء زمن كهنة الزمن قبل عصر
هيرودوت في مراقبه فلكية سمحت بملاحظة الفرق بين السنة الشمسية في التقويم
القديم وهذه السنة الشمسية في تقويمنا الحديث ، وهو فرق يبلغ سنة كاملة كل ألف
وأربعمئة وحدى ومئتين سنة ، ولا سبيل إلى إدراك هذا الفرق في أمة تجهل لرصد
والتمسحيل وتعجز عن مراقبة هذه الفروق دورا بعد دور في تاريخها الطويل (١) .

* * *

وبما يذكر ، ولا يهمل ، في صدد الروايات المتواترة عن الأمم الدارسة رواية
أهل طروا عن القدرة المفقودة التي سماها القارة الأطلسية ، وذكرها في كتابين من كتبه
المحفوظة هما كتاب « تيمائوس » Timaeus و « كريتياكس » Critias وروى من أخبار أهلها
أنهم تقدموا في الحصار عندما لم يتركه أحد من عددهم ، ثم عصت بأهلها تحت
الأرض على أثر زلزال من زلازل العصور الغابرة التي يظهر من أخبار الأقدمين أنهم
كانوا يحسبونها من عوارض الطبيعة الدائمة أو عوارضها الدورية ، وقد بحث طلاب
الأسرار في محافل المأصلي المدثور عن موقع القارة المفقودة مرجع عددهم أنها كانت
في موضع المحيط الأطلسي بين شبهة ووسطه ، وأنها زالت في إحدى الكوارث
الكونية التي قدروا لوقوعها سنة ٩٥٦٤ قبل الميلاد ولم يبق منها إلا بعض خزر
البركانية .

(١) يرجع إلى كتاب فيلوكسكي Velikovsky من المرام المتصادمة

وقد كان أفلاطون أحد رواة هذه الأسطورة ، فلفت من عاية الاحلاف
اللاحقة ما لم تنفك أساطير عصره ، وجاء فرسيسس باكون يلسوف لعلوم التجريبية
بعد القرون الوسطى فسمى أحد كتبه باسم الأطلسية الجديدة ، ووصف فيه العالم
الجديد كما يتعناه

إلا أن العالب على المحدثين أن يتبعوا في هذه لرواية مسهبهم «التفيدى» في كل
رواية تحلفت من لعصور الأولى وانتقلت إلى العصور الأخيرة مع أساطير
الأقدمين ، بحسبها حملة واحدة في عداد تلك الأساطير ، وهو منهج كانت له
مسوغاته القوية و مرحلة الانتقال بين ظلمات القرون لوسطى ومطامع الكشف
والتحقيق صد أوائل القرن التاسع عشر ، ولكن استقرار عصر انكشاف والتحررة
العلمية حثيق أن يوصل الاقدام على بر لأمن ويسمح لباحث بتردد في الانكرا كما
سمح له من قبل بالتردد في القبول ، بل بالتعجل في الرقص بعير حجة ولا موازنة بين
مسوغات التكذيب ومسوغات التصديق ، ولعل الكشوف انكثيرة التي تعافت
خلال القرن التاسع عشر وثبتت منها أن روايات الأقدمين لم تكن كلها من قبيل
الأساطير قد أفتنت أكثر الباحثين بأن الرقص بعير برهان أضرب بالبحث من القبول بعير
برهان ، لأن الذي يحرم برقص بعير قديم إعد يحكم بالاستحالة على المكثات الكثيرة
التي تجرر ولا تمتع في العقول ، وعير منه عقلا من يقبل شيئا ممكنا ، وإن لم
يقم البرهان على وقوعه فعلا كما وقع عيره من المكثات .

وإذا حق هذه الأسطورة ، أن تشفع ها رواية أفلاطون ، فقد يكون من
شعاعاتها الحديثة التي تركى تلك اشماعة الموقرة أن المحيط الأصسى بنىء الباحثين
المحدثين عن صدوع واسعة يدل عليها تقابل الخطوط بين شواطئه الشرقية وشواطئه
الغربية ، وقد نمل عيبها أغوار لقاع وسلاسل المواقع المنهارة على متداده طولاً
وعرضاً بإراء قارت العالم القديم والعالم الجديد ، وهذه كلها كشوف متأخرة لم
يعرف عنها الأقدمون شيئا حين تناقروا أخبارهم عن قارتهم المفقودة

على أن الكشوف الأثرية في السوت الأخيرة قد حرجت بأساطير انهارت
المفقودة من عالم لأسرر إلى عالم الآثار وطالعتنا باسم قارة جديدة في محيط آخر عير

المحيط الأطلسي ، ولكنه يقابله في الموقع ويشبه في انضواهر والأعوار ، وثالث هي
قارة « مو » Mu التي ألف عنها الكولونيل جيمس شرشوارد chuchward كتابه باسم
« قارة المفقودة » « أبناء مو » وروى فيها أبحار حضارات سابقة لعصور التاريخ
يرجع بها قدما إلى أكثر من عشرين ألف سنة قبل الميلاد . ويعزز دعواه برمود
وإشارات يفسرها بمعانيها الغوية ، ولا يقنع باعتبارها من أشكال الزينة ونقوش
البناء ، لأنه يرى أن الرسوم الهندسية لا تطلع هذا مبلغ عند أمة تجهل الكتابة ونقل
الأفكار بالعلامات والخطوط

• • •

وعلى عهدة المؤلف نقل خلاصة كتابه عن القارة المفقودة مقبسة من مقدمته
لكتبه الآخر عن « أبناء مو » وفيها يقول ما فحواه

« إن قارة « مو » كانت قارة واسعة تقع في المحيط الهادي بين أمريكا وآسيا ،
ويقع وسطها إلى الجنوب قليلا من خط الاستواء .. ويقدر طولها من الشرق إلى
الغرب بسنة آلاف ميل ، وعرضها بين الشمال والجنوب بثلاثة آلاف ميل ، وقد
دهمها زلزال عصف قل عو اثني عشر ألف سنة فابتلعها لبحر المحيط وعاص معها
إلى قراره نحو ستين مليون إنسان ، ويستند على وجود تلك القارة بالآثار الكثيرة
والروبوت المتوارثة التي يتداولها أناس من أبناء الهند والصين وبرمه والتبت وكمبوديا
وأواسط أمريكا ، ومنها نقوش ورقوم شوهنت في جزر المحيط الهادي ، تؤيدها
روايات الاغريق والمصريين الأقدمين وتتواهر حولها الأساطير بين بقاع الدنيا المترامية
على أرجاء الكرة الأرضية . وقد خطا الانسان خطواته الأولى في سبل التقدم والمعرفة
قبل نحو مائتي ألف سنة ، وانتهى قل مكتة القارة بالزلزال إلى شأو من الحضارة لم
تصل إليه حتى الآن في حضارتنا لراهنه ، لأن حضارتنا لا تدعى لها عمرا أطول من
خمسة آلاف سنة وهي مرحلة قصيرة بالقياس إلى انشأو الذي يدركه الانساب العاقل
بعد ممارسة الحضارة والصناعة مائتي ألف سنة ، وليسب حضارات الأمم الشرقية
العريقة من الهند إلى نابل ومصر وإلا ومصبات ارماد المتخلف من حضارة تلك القارة
العريقة ، وقد فسر المؤلف ما عثر عليه من الرموز والرقوم واعتمد في بعض تفسيراته

عن كهان مخارب البرهية وعلى حلول «تلاسم» التي انتهى إليها قراء لكتابات
 القديمة على آثار الحروب وحشرق ، ومنها آثار المايا وآثار لمراعاة ويقوم المؤلف
 انه لم يأت برأى من عده في كل ما بسط القول فيه من أخبار ملك القارة ،
 ولكنه رأى ما يراه كل فارىء لتنت النقوش والرقوم بتقبل طريقة حدها كما
 شرحها مشفوعه بأسانيد وبالأدلة التي تؤكد معانيها ، وقد نلت له من ملك
 الأدلة أن بعضها يمتد في الأرمية الماصية إلى سبعين ألف سنة ، ولكن الآثار
 التي نلت من قرة «مو» بعضها حد قليلة ، وغاية ما أمكن العثور عليه من
 الآثار المتصلة بها أثرا من مريان مصوغا من البربر ، يرجع تاريخهما على الأقل
 إلى نحو عشرين ألف سنة إذا كانا من مخيمات الحصار التي بقيت على أرض
 انهاره لأسبويه بعد البربر وقبل الصوف وقد يرجع إلى آما أبعده من ذلك
 حدا إذا كانا من مخيمات «مو» التي نلت إلى بلاد القارة الآسبوية .

* * *

والحديد في قصة هذه القارة كما رواه مؤلف كتابي القارة المفقودة وأثناء «مو»
 أنها تحدث عن الإنسان «المتدين» في تلك العصور السحيقة ، وأما تصف لنا هذا
 الإنسان «مخوقا» مميزا بين جميع المخلوقات ، وتربط بين خاصة التدين وبين هذه
 المزية التي تفرده بين أنواع الأحياء ، على خلاف المفهوم من مذاهب النشويين الذين
 جعلوا الإنسان نوعا من هذه الأنواع بغير مزية تفصله عنها سوى مزية الارتقاء ، وقد
 أم المؤلف بمشايها عارضة بين عمل الكلام عن الخليفة ، وعن نكبات الإنسان
 في العصور العابرة ، كما جاءت في الآثار الأولى وفي كتب الأدبان الباقية ، وغاية ما
 نقوله عن تأكيدات المؤلف وتحميناته معا أن مسألة الإنسان المتحضر قبل عصور
 التاريخ ليست بمهم في سياق يعرض لتاريخ النوع الإنساني ولمكان الإنسان من
 كتب الدين

الإنسان ومذهب التطور

نقاللون بالتطور فرقان مهم من يعمم تطبيقه على الكون كله كما اشتمل عليه من مادة وقوة ، ومهم من يعصره على عام لكائنات العنصرية التي تشتمل على النبات والحيوان والإنسان ، ولا يحيط بما عداها من الموحودات غير العنصرية .. والقائون بالتطور العام يوجهون مسألة الخلق ، أو مسألة الإيمان بالخالق ، في كلامهم عن لعالم وعن القوى المسيرة له من خارجه أو داخله ، ولأما من لهم من التعرض لهذه القوى برأى من الآراء ..

فالذين يفصرون التطور على الأحياء ، يرجعون لـ تعليل تطوره إلى عوامل الطبيعة وما تشمله من مؤثرات انبئة والناخ ومورد البقاء ووسائل الحصول عليه ، ولا يصطرون القول بهذا التطور إلى التعرض لما وراء هذه العوامل الطبيعية باثبات أو انكار . فقد تكون عموم الطبيعة في مذهبهم خاصعة لقوة عالية فوق طبيعة ، تودعها ما تشاء من النظم والنواميس ، ولا يتناقض القول بالنظم الطبيعية عندهم والقول بما وراء الطبيعة ، على حسب العقائد الدينية أو المذهب الفلسفية

أما تعميم التطور على الكون كله ، فلا بد أن يسبقه استؤال عن القوة التي تمتد تسير هذا الكون منذ الأزل إلى غير نهاية ، ولابد للقائل بتعميم التطور من الفصل في مسألة البداية والنهاية وهي لا تنفصل عن مسألة الخلق والخالق في حملتها . فوذا كان تطور الأحياء يرجع إلى عوامل لبئة الطبيعية ، فمدا خارج الكون كله يرجع إليه تطور الكون منذ البدنة الأولى ؟ وكيف يتفق القول بالتطور والقول بالأبدية التي لا أول لها ولا آخر . فدا قيل أن الكون موحود بلا ابتداء ولا اختتام ؟ إن أشهر القائمين بالتطور العام هررث سسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) لدى عرف التطور بأنه امتداد من السيط إلى التركيب . وقال عن تطور الحياة أنه توفيق دائم بين مطالب البئة الحية وبين ظروفها الطبيعية ، ولهذا يحدث التغير للنبة ثم يحدث لها لتوسع والامتداد ، وترقى في وظائفها تبعاً لتوسعها وامتدادها .

وقد عرّضت له قضية البداية الأولى هم بدورها في حدود الطبيعة وم يخرجها من حدودها .. ولكنه قسم الحقائق الكونية إلى قسمين بالنسبة إلى المعرفة الإنسانية . أحدهما حقائق الأشياء في ذاتها وفي أصولها الأولى وهي القسم لدى لايدرك ولا يتقبل الإدراك بالأساليب العلمية ، والآخر حقائق الأشياء في ظواهرها المحدودة وهي التي يستطيع عقل الإنسان أن يدركها بالاستقراء والاستدلال ، ويظهر فيها عمل التطور إما باستخراج الأحكام العامة من لمشاهدات المتفرقة ، أو بتفسير هذه المشاهدات على حسب تلك الأحكام .

وأصحاب هذا الرأي من القائلين بالتطور لعام - على نرددهم في مسألة الأصول الأولى لا يتجاهلون هذه الأصول ، ولا يفهمون أن القول بالتطور العام يوجب عليهم أن يرجعوا إلى المؤثرات لكونية التي تصدر منها لأثار متنوعة وتفسر لنا أسسها ، وأن إطلاق القول بالتطور من مبدأ الكون غير تخصيص لتطور بالكائنات العنصرية وتفسيره بالرجوع إلى العوامل التي تحيط بتلك الكائنات وتعمل فعلها أو تعمل معها نشاركها ، ولكن أصحاب التطور العام على مذهب مسير يسلمون بشك المؤثرات لكونية وتركيب البحث فيها عجز عن الوصول إلى النتيجة ، فيقفون بالمعرفة الإنسانية عند الآثار التي يدركونها ويحجمون عما وراء ذلك ، فيسكبون في عداد المجهولات التي لا تدرك بالحواس والعقول

ويبين أصحاب التطور لعام الذين لا يدعون مذهب مسير في تقسيم المعرفة الإنسانية بين مدرك وغير قابل للدرك ، وهو قل ذلك مذهب الفيلسوف الايقوني هامثون (١٧٨٨ - ١٨٥٦) ومذهب الفيلسوف الألماني غونيل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) في الظواهر والحقائق أو في الأشياء كما نحس وتدرك ، والأشياء في ذاتها فأصحاب التطور هؤلاء فريقان ، يقفون من مسألة الأصول الأولى موقفين متقابلين متناقضين .. وتفسير هذه الأصول عند أحدهما - وهو فريق المؤمنين - أنها من صنع الخلق الحكيم ، وأن القوة التي تصدر عنها آثار التطور في تكون كنه منذ بدايته لابد أن تكون «قادرة» فوق الطبيعة وفوق الكون بوجدته ما تشاء من النظم وأنواعها .

والهريق الآخر - وهو هريق الماديين المكربين - يكتفى من التفسير بذكر العوامل التي نسبت إليها التأثير واعتبارها طبيعة في المادة لا تفسير لها إلا أنها وجدت هكذا ، ولا يمكن أن توجد على صورة أخرى غير التي وجدت عليها

إذا احتاج الفيلسوف لمدى إلى القول بالحركة الدائمة ، فإن لها عادة المادة في أصل تكوينها ، وإذا لزمه القول بالتغير مع الحركة قال إن المادة المتحركة متغيرة بطبيعتها ، وإذا لزمه بعد ذلك أن يعمدها متغيرة من البساطة إلى التركيب ومن النقيص إلى النقيص فهذا القول عنده هو وصف نواقع وتفسير له في وقت واحد ، وكذلك يصر التقدم والارتقاء وهما يستلزمان العبة المرسومة والنتيجة المقصودة ، ولكن الفيلسوف لمدى يحسب أنه فرغ من التفسير بوصف كلمة « الضرورة » هنا موضع كلمة العاية المقصودة .. وليس عند الفيلسوف المادى تفسير لهذا التعدد المائل في ضواهر الكون وأجرامه ، مع ابتداء تطوره من وقت واحد أو مدأ واحد ، وجريان هذا التطور على مادة واحدة وقوة واحدة . وليس عنده معنى لهذا التقدم أو غاية يتقدم إليها غير انقضاء أجل الكون مرة بعد مرة ، كلما انقضت دورة من دوراته الأبدية بين التأخر والتقدم ، أو بين الهبوط والارتقاء ..

وكل هذه الفلسفة المادية تلتخص في كلمة تشبه كلمة الطفل حين تسأله عن سبب شيء فيقول لك « هكذا » بغير سبب ، أو تشبه كلمة اجاهل الذي تسأله عما وقع أمامه فيقول لك . « وقع وحده » ولا تفهم منه علة لوقوعه أو صرح من قول المادى ان فيلسوف إن المادة تتغير لأنها متغيرة ، وتتقدم لأنها متقدمة ، وتنتقل من البساطة إلى التركيب ومن النقيص إلى النقيص لأن ذلك كله من طبيعتها . ولولا أن المادى الفيلسوف يقرر مذهبه في التطور ليصل منه إلى نتيجة في المستقبل يوجهها على الناس وعلى الزمن لتساوى تفسيره للتطور العام وسكوته عن تفسيره . ولكنه لو احتار ان يتساءل نتيجة ناقص تلك النتيجة ، واحتار أن يصر ذلك أيضا بأنه طبيعة من طبائع المادة وطور من أطوارها لما كانت حجته في إحدى البهوتين بأقوى من حجته في الأخرى .

• • •

والقائلون بتطور الكائنات ، لعنصرية ، ممن يقصرون ، لقول عليها ولا يعممون تطبيق التطور على جميع الكائنات يميون - على الأعلب لأعم - إلى القصد في التفسيرات والتعليلات ، ويتجنبون البحث في الأصول الأولى مكتفين من الأسباب ، بخضع لتجربة ويصلح للتقرير بأساليب العلم الطبيعي الحديث .
 رحلصة مذهبهم أن أنواع الأحياء تتحول وتتعدد على حسب العوامل الطبيعية ، وأنها ترجع جميعا إلى أصل واحد أو أصول قليلة نعلها هي الخلايا البدائية ..

ريس القول بتقارب الأنواع أو بتدرجها ، رأي حديثا مجهولا قبل ظهور مذهب دارون أو مذهب الشوئين العصرين على العموم ، ولكنه رأى قديم قال به فلاسفة يونان وعرفه مفكرو العرب كما سسبه في فصل آخر من أصول هذا الكتاب ، وإنما اخذت منه إسناذه إلى أسباب العموم الطبيعية التي شاعت بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل لقرن ثامن عشر ، وبدأ لقول به مع ابتداء البحث العلمي على مناهج العلماء المحدثين .

قال به العالم ايباني السويدي كارل ليرس (١٧٠٧-١٧٧٨) Carl Linnaeus انذى عى تصنيف الأنواع والأجناس في درسته لنباتات ونبى على هذا التصنيف رأيه في أنواع الأحياء على التعميم .
 وقد كان صاحب هذا لعالم ثر وسع في البنية العنمية الالعبيرية ، فأشنى الجمع ايبى في لندن بعد وفاته بعشر سنوات ، سسبه إليه .

وقال به بوفون العام السانى لفرسى (١٧٧٠ - ١٧٨٨) Buffon الذى ألف كتابه المفصل عن لتاريخ الضمى معاونة لأستاذ دوينتون Daubenton وآخرين ، واتخذ من تصنيف أنواع النبات رأى يماثله في تصنيف أنواع الأحيوان .

وكان من المعاصرين لهذين العالين ارasmus دارون Erasmus Darwin (١٧٣١ - ١٨٠٢) جد دارون الذى سسب إليه مذهب الشو و التطور ، فكان رائد لفصده في لقول بالتقارب بين الالسل والأحيوانات العليا . وعاش معه في عصره انه الفقيه الايقوسى نورد مبيدو (١٧١٤ - ١٧٩٩) Lord mon bodda صاحب كتاب « أصل النعه وترقيها » وكتاب « ماور » لطبيعة في انصوير القديمة .

ومدهه في تطور الإنسان ظاهر من بحثه عن الأسباب الطبيعية لتطور البعثة . وعن العلاقة بين الطبيعة وما وراء الطبيعة عند الأقدمين ..

وتبين من المقارنة بين تواريخ ميلاد هؤلاء العلماء ، أن جو العلم انطبع في القارة الأوروبية من شمالها إلى جنوبها كان قد تهيأ لدراسة الحياة والأحياء على أساس الوحدة في قوانين الطبيعة ، ولم يكن ذلك مقصوراً على السويد وفرنسا والمختلطة ، بل صبح من روايات مؤرخي العلوم عند الألمان والروس أن هذه الآراء وجدت من يقول بها على نحو من الأنحاء ، وإن كانت روايات هؤلاء المؤرخين لا تخلو من ملاحظة الصحر بالسبق العنفي بين الأمم الأوروبية .

ولكن مذهب الشئ لم يُعرف بتحصيله قبل العلم الفرنسي لامارك (١٧٤٤ - ١٨٢٩) Lamarck ثم العالمين الانجليزيين . شارل دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) ورميله تفريد رسل والاس (١٨٢٣ - ١٩١٣) وعلى صاحب هؤلاء العلماء الثلاثة يقوم أساس مذهب الشئ ، أو مذهب التطور ، بشقيه المقدمين في اعتبار العلماء إلى اليوم .

* * *

وكل من لامارك ودارون ووالاس يقول بتحول الأنواع ، ويرد كثرتها إلى نوع واحد أو أنواع قليلة ، ولكنهم لا يتفقون على أسباب التحول ولا على لصفات والوطائف التي تنتقل بالوراثة متى تعبرت في تكوين لأفراد

ففي رأى لامارك أن أعضاء الجسم الحي تتغير بالاستعمال أو بالاهمال أو بطاري من طوارئ المرض والاصابة ، وأن الصفات المكتسبة التي تتولد من ذلك تنتقل بالوراثة ولا تزال تباعد بين الأفراد حتى ينمض كل منها نوعه المستقل ندى لا يقبل اسئل مع غيره ، وقد ضرب مثل بالزرافة واقترص أنها لتطول قوائمها كانت تأكل طعامها من أطراف اشجار العليا ، وتعودت أن تخط عقها كما تعرتد الصروع السمي من أوراقها حتى بلغ غده امتداده ، وثبت على هذا الطور في أعقابها الموالية

والشوثيون الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة ، يستندون على

بطلان هذا الرأي ببعض الصفات المكتسبة التي شوهدت منذ أجيال كثيرة ، ولم يشاهد لها أثر ورثي في الأجنة وبنوالب ، ومنها أن نساء بورما تعودن منذ أجيال أن يطنن أعناقهن بالأطواق المربضة يصنعن طوقا منها فوق طوق حتى ينبغ من الطوق غاية الاحتمال ، ولا تزال نواتهن يولدن بأعناق لا تريد في طولها على أعناق السير الذكور ، ومنها أن عادة الختان عند اليهود لم تعقب أثر ورثي بعد استمرارها منذ ثلاثين قرنا أو تزيد ، وشاهد مثل ذلك في دربة الحيوان الدجس التي تعود المدحجون له أن يقصروا أذناه أو يستأصنوا بعض أعضائه ، فانها تولد بأعضاء كأعضاء آبائها وأمهاتها بعد انقضاء عدة أجيال على تدجينها .

ويرى الشبوتيون الذين يقولون بوراثة الصفات المكتسبة أن قصر الزمن الذي مر على هذه الملاحظات - بالقياس إلى الآماد الطوال التي مرت على تطور الأنواع الحيوانية - لا يكفي للحزم بامتناع لوراثة عن إطلاقها ، وأن إهمال الأعضاء بالقطع يسر من شأنه ضرورة - أن يورث ولو طال عليه الأمد ، لأن المقصود بالإهمال ما يحدث أثرا في قوام اسية الباقية أو يشأ عن حدوث هذا لأثر فيها

ويلجأ الشبوتيون على رأي دارون وولاس - إلى تعليل آخر حدوث التحول في الأنواع ، فيعللونه بالانتخاب الطبيعي والانتخاب الجنسي ، مع القول بتدرع اللقاء لزيادة المواليد الحية على الموارد الكافية لتغذيتها ووقايتها .

فالزرافة - عندهم - م تنقص صفة مكتسبة إلى دربتها ، ولكن أفراد الزراف وددت قديما وفيها تفاوت في الصفات كما يتفاوت الأفراد في جميع الأنواع ، وبنى أطولها عنقا لأنه استطاع أن يبلع اعلى الشجر حيث يقل الطعام ويقصر غيره من أفراد الزراف من بلوغه ، وهنا يعمل الانتخاب الطبيعي عمله فنتج دربة الزراف الطوان انعتق وينقرض ما عداها ، ويعمل لانتخاب الجنسي عمله مع الانتخاب الطبيعي لأن الأفضل من ذكور الحيوان وإنائه يفصل على غيره عند الجنس الآخر ، فيعقب كلا الجنسين الفصين دربة تشبه في الامتياز على سائر الأفراد .

ويسمى مثل الزرافة في رأي دارون بأسعد حظا من هذا المثل في رأي لا مارك ، لأن المعارضين عليه يقولون إن قلة البورق على هروع الشجر المسفل يبب صغار الزراف

كما يبيد أنواع لحيوان التي تعيش مثله على عشب أو على الشجر القصير ، وأن ذكر الزراف أطول أعناقاً في العشب - من إناثه ، فهي حليقة أن تعي مع غيرها من الزراف الفصار الأعناق . .

إلا أن الأكثر من الشوثيين يعتبرون هذا الخطأ سوء تمثيل من دارون ، ولا يعنونه سبب كافٍ بطلان القول بالانتخاب الطبيعي فهو أن دارون نظر إلى مزية انقوائهم الطوال ، ولم ينظر إلى مزية النقص لتطويل لأمكن بعليل بقاء الزراف المختار بالقدرة على أخرى جعل الانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسني في وقت واحد ، لأنه يعلت من مطارديه ويسبق سائر الزراف إلى أماكن المرعى كلما اضطرت نذرة المرعى إلى الانقراض من مكان إلى مكان ، وقد صحح تمثيل دارون بأنواع شتى من الحيوان غير نوع الزراف هم يصادفونه فيها مثل هذا الاعتراض

. . .

وبعد مقارنة بين الرأيين رأى لامارك ورأى دارون واللاس - ينصح أنهما ينتهيان إلى نتيجة متشابهة ، وهي ضرورة القول في النهاية بوراثة الصفات المكتسبة على طول الزمن ، فإن لم تنقل بعد اكتساب في حياة فرد واحد فهي منتقلة بعد تجمع ولتحكم من فرد إلى فرد يتم بينهما التوارث فجأة أو على أثر التدرج البطيء ، وممكن في ذهن دارون فرض معلوم غير طوب الزمن يوم خالف الشوثيين من قبله في تعليقه لتحول الأنواع ، وكل ما هنالك أن دارون جرى على عادته من اجتناب الأحكام الإيجابية كما أمكن بميل الطواهر المجهولة بالعلل السببية ، فهو يقول إن الأنواع تبقى لأن أسباب الانقراض عجزت عن إبادتها ، بدلا من القول بمؤثرات معية تحس الصفات وتؤدي إلى انتقالها بالوراثة ، وكاد آراؤه في تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي والانتخاب الحسني ، أن تنتهي إلى نتيجة واحدة ، وهي أن الأحياء بقيت لأنها لم تعرض ، وأن أسباب الفناء عجزت عن إبادتها كما أدت غيرها وهذه قاعدة الذهبية هي في وقت واحد مصدر القوة ومصدر الضعف في تفكير دارون وفي هذا الصرب من التفكير على عمومها فإنها دليل على الأمانة الفكرية التي تحجم عن تقرير حكم معين قبل ثبوته والاحتاطة بحقيقته ، وهي كذلك

مرصع لنقص الظاهر لأن العوامل السببية لا تقوم عليها دلائل الخلق والانشاء .
وإن قامت عليها أحيانا دلائل البروال اندى عهد روبرت فريك وسلامة فريك

وقد كان حقا الشواهد في تقرير مسألة الوراثة بقصا لأرما باحث العلم الطبيعي
في القرن التاسع عشر . أي كان رأي العلم الذي يقرر هذه المسألة ، لأن استمرار
وراثة م تعرف قبل تقدم علم السلالات (أبحاث) Genetics وظهور عمل
الباسلة Gene والصيغة Chormosome في نقل الخصائص والفوارق الفردية من
الآباء والأمهات إلى الأبناء .. فكل صفة لا تكس في الباسلة ولا تحتوي صيغة من
صبغيات هي صفة عارضة لا تنتقل إلى النسل بالوراثة ، ويقول الأستاذ بفيل
جورج أحد ثقات هذا العلم - إن الانتخاب الطبيعي لأجل هذا لا يصلح
لتعيين مذهب شئ أو مذهب التطور . لأنه يعمل رول غير الصالح ولا يعمل
نشأة المزايا التي تحقق الصرح وتكفل لصاحبها الدوام في ميدان تنزع البقاء ، ثم
تفتح الباب لعمل الانتخاب الطبيعي في المستقبل عند التفاوت في تلك المزايا الموروثة
بين الأفراد . وإنما نشأ هذه المزايا بعمل من أعمال الطفرة Mutation يكمن
لاحداث تغيير المطلوب في الباسلة وفي صبغياتها التي تنقل تلك المزايا بالوراثة وقد
أمكن العلم بالخواص التي تنقلها كل صيغة من الصبغيات في بعض أنواع البات
والحيوان ، وأمكن التأثير في الصبغية بفعل العقاقير أو الأشعة السينية ، ويقار إن
لأشعة كوية تفعل هذا العمل إذا مدت إلى بذور البات والحيوان ، وسها يعملون
التحول المنحجي كما يعملون الاختلاف الطارئ على البات في الألوان والأحجام
والأشكال ..

وتجرب تجارب الأشعة الآن لاحداث التحول الموروث في أنواع من البات
والفراش ، وقد تؤدي التجربة فعلا إلى ظهور خاصية في الحشرة تغير دريتها فتخالها
بعض مخالفة ويشب الاختلاف بعد ذلك على من الوراثة المعروفة بدمدية ، سبة
إلى « مدل » صاحب التجارب المشهورة في وراثة الحبوب . ومن هذه التجارب
تجربة تأثير الأشعة السينية على دباب لفاكهة «عروف» دسم لدرسميلة
Drasophila فإن تعريض الدبابة منه للأشعة يغير دريتها ، فتتقن بحالة لها في لون

غير أن في طول الجراح ويثبت هذه الاختلاف بعد ذلك في أجناسها المتعاقبة على
النسبة الهندية المقررة لتنظيم حطة الورثة على سبيل معروف من الأعقاب إلى
الأعقاب .

* * *

ويتجدد الآن سؤال قديم ملام لمكرة الشئ عند انتشار مبادئه قبل تقدم علم
الانسلات . فما هو مدى سريان التطور على الجنس البشري ؟ هل هناك حد فاصل
بين البشرية والحيوانية ؟ وإذا أمكن عند تحسين أنواع الحيوان معالجة الانسلات ،
فهل يمكن استخدام هذه الوسائل في تحسين صفات الإنسان الفكرية
والروحية ؟

إن استثنائين قد تساءلوا عن هذا المصطلح ، مند قروا آراءهم عن التطور على
قواعد العلوم التحريية وأجابوا عنه إجاباتهم عن حسب عقائدهم مرة وعلى حسب
أمرجتهم مرة أخرى

فالعلم الفرنسي بوفون يقرر أن تقسيم الأنواع يتناول الانسان من جابه الحيوان
ولا يعرض لحوايه المميرة له في عقائد المؤمنين ، ودارون يقول انه يتكلم عن الأطوار
التي تؤثر في جسم الانسان ولا شأن له بما عده ذلك من الملكات الروحية التي يقرر لها
له الدين . وهذه الأخوية من الشنوثيين ليست بالأخوية الحديثة في باب على ذلك
السؤال القديم ، فال ابن سينا - مثلا - كان يقرر مذهب الطب في الأمراض التي
تسبب إلى فعل الحان والأرواح الحسة أو الطسة فيقول انه لا يعني هذا الفعل ولكنه
ينظر إلى آثاره الحسدية فيرى أنها تحدث الأعراض التي يعالجها بعلاجها الطبي
لموصوف لها عند الأطباء

وبين استثنائيين جميع على مذهب بوفون ودارون أو مذهب بن سينا وأصحابه من
علماء الزمن القديم ، فال بعض علماء الشئ المحدثين وعلى رأسهم ارست
هكل - يكررون كل سنة للانسان غير نسبه إلى أنواع الحيوان ، ويخعون هذه
النسبة شجرة تجمع بين وبين القردة انعب وترى في حدودها إلى القردة المذمة التي
تعيش في أمريكا الوسطى وأمريكا الحويه Marnasets وقلما تحتل الحوفي

الأقاليم الشمالية ، ومن دونه الميمور Lemuy فرد مدغشقر ، وهو موضوع في
شجرة النسب دون قرودة « الميمور » الأمريكية

ويرتب المشوئيون انقرودة العليا صعدا - من الجيبون إلى الأورنج ، إلى
الشجيري ، إلى الغوريلا ، وقد يعرفون بها في درجات الرق بحسب اعتمادها على
تسلق الأشجار أو المشي على أديم الأرض والقدرة على الوقوف واعتدال القامة عند
سير على قدمين فأدناه ما كان اعتماده كله على التسلق ومعيشته كلها فوق
الأشجار ، وأعلاها ما اسعى عن تسلق الأشجار واحتاج إلى استخدام يديه وهو
ماش على قدميه ، فان نمو الدماغ مرتبط بدرجة العمود الفقري وعظام العنق ودرجة
انتصرف باليدين عن قصد وإرادة لتحقيق عمل من الأعمال ، ويرغم هؤلاء
المشوئيون أن « التطور » الإنساني له علامات تبدأ من قرودة الميمور وقرودة الميمور
لديها ، وتندرج - صعدا - إلى لسان حيث يرول لدن ويسمو الدماغ وتتحول
أيضا إلى أداة صالحة لتناول عبر مقصورة على المشي أو التعلق بصروع الأشجار
وحمل تلك العلامات أنها بوادر الخدوس والوقوف وحتماء السب ومخالب القدمين
واليدين

ويذهب أحد المشوئيين المحدثين إلى القول بأن نوع الإنسان سابق لأزواج القرودة
بمئات الألوف من السنين ، وأن القرودة العليا أدنى ممسوخة فقدت أوائل الصفات
إنشورية ، واكتسبت في الصفات العقلية والحسنية إلى ما دون تلك المراتبة بكثير أو
قليل

وصاحب هذا الرأي هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch الذي كان
يدرس علم الإنسان بجامعة برلين قبل الحرب العالمية الأولى ، وعنده أن إنسان جاوه
الذي وجدت بقاياها المتحجرة وأطلق عليه العلماء اسم Pithecanthropus
هو المرتبة الوسطى التي صعد منها حلماؤها إلى ما فوقها وهبط منها الخلفاء الآخرون
إلى ما دونه ، ويرغم « كلاتش » أن الإنسان ينتمي إلى أصول متعددة ، ولا يجمع
كنه من أصل واحد ، فالهولنديون وقرود الأورانج من أصل واحد ، وزنوج إفريقيا

والشمبارى والعوريل من أصل آخر ، ولكنه رغم لا تؤيده المقابلة بين هذه الأحياء
في الخصائص التشريحية ..

* * *

ومن المعارقات أن هؤلاء الشوثيين النساين م يبلغوا بالقرد ذلك الشبه الذى
تصورته طائفة من الأقدمين نل انتشار القول بالتطور واشتباك الأنواع والأجناس
فإن تلك الطائفة من الأقدمين تصورت أن جميع القرود ناسى محسوحون عقلت
السهم وبقى هم أفهامهم ، وليس سهم وبين أساس من ورق غير الفارق الذى
ياعد بين الكائنات المشوهة والكائنات اسوية من أصل واحد ، وبكر شجرة
السب تحتاج إلى علم التشريح لالتقاط المشبه التى ترجع القول بوحدة الأصول
المعدية بين الامسان وبين أقوم الخلائق من أنواع الحيوانات العليا ..

يقول آرثر كيث - من أكبر الشوثيين المتأخرين في كتابه شجرة سب
الاسان « إن الأستاذ وود حوس لعت اسطر إلى بقاء علامات كثيرة في تركيب
الانسان قد احتضت من تركيب القرود العليا وعمامة القروود ، وأن هذه القرود العليا
وسائر القروود قد احتضت علامات شتى رلت من تركيب الاسان ولست أرى أن
هذه الشبوهات تسدعى تعديل السب التى رسمتها هنا ، ولكنى أرى أن تفسيرها
يسعى أن يلمس في زيادة العناية بهم قووين ابترثة ، من الكائنات الحية أشبه
بأشكال المسيهساء المتداخلة ينتقل بعض أعطط بالوراثة ويحتنى غيرها . فانعوريل
تولد في أكاده الفصيصات التى تولد في أكاد القروود ، بينما تقرب كد الأوراج
أشد لاقتراب في تركيبها المتناسط من كد الاسان ولك يسعى أن يعرض أن هذين
الحيوانين تحدرتا من عهود بعيدة من سلف مشترك يشبه تركيب كده كبد الحيوان :
ثم يستطرد إلى بيان الشبه بين الاسان والقرود الأمريكية فيقول « إن الاسان

له على حاسبى نجويته الأبقى سلسلة من الحبوب تسمى بأسماء المعطام التى تجاورها
ولا يسع أن يعتقد أنها تولد على حدة في نوعين من الحبوب ، ويوجد هذا النمط
الإنسانى في كل من الشمبارى وعوريل ، وإن كانت الحبوب في العوريل وحدها
قد محدث ها عطف آخر ، ومن الحائز أن عطف آخر كان موحودا في ألف سلف

الأوراسع ويصعب التحقق منه بعد تكاس تركيب الألف كله في هذا العصور الكبير من أعضاء الحيوانات القردية العليا . وقد عرف أن دم العوريل ودم الشمبانزي أقرب استحابة إلى الأفعال بدم الإنسان من جميع الفقاريات وتبلغ العلامات المشتركة بين الإنسان وكل من الشمبانزي والعوريل نسبة إلى سائر العلامات التي أحصيتها تقدر بثمانية وسبعة أعضار في المائة ، وهذا أتوقع أن بقية من بقايا المتحجرات تكشف يوم في إفريقية تعتبر السلف المشترك بين العوريل والشمبانزي ولانسان .

* * *

هذه هي العلامات لتتبعية التي انتهى إليها أصحاب شجرة السب من النشويين المتأخرين ، وما عداها من العلامات ووجوه الشبه لا يعدو أن يكون إعادة لتصوير المشبه العامة التي يلمحها النظر لأول وهلة بغير حاجة إلى شريح الأعضاء ، وقد أحصاها الأستاذ « شامون بشر » Pincher في كتابه عن تحليل التصور ، ثم عقب عليها قائلا : « إنه لا احتمال لتسلسل الانسان من الفردة كما نعرفها ، لأن الفردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب لاسنان ، إذ كان الانسان قد م به خلال مليون سنة دماغ أكبر وقامة أقوم ويد أقوى هذا وذلك - أصلح للتناول والتصرف بالاستعمال » .

وهذا الفاصل الخامس هو قصارى مدى الاقتراب بين النوع البشري وسائر أنواع الأحياء بمقياس التطور وعدم الوراثة ، يعبر عنه نشوئي فيقول أنه سبق مليون سنة ، بلحق به مدى انفارق الروحي في تعبير الدين .

التطور قبل مذهب التطور

إن اختلاط الأسبب بين أنواع الحيوان خاطر قديم توارثه الأقدمون من أرمية
مجهولة ، وندرت أمة من أمة أسلف ابهيد لم تتوثر فيها لأحبار والأساطير عن
التناسل بين أنواع احيوان أو بين الانسان و احيوان ، أو بين الانس واجن . أو بين
الانس وأ ناس الأساطير المشبهين بالانسان . ومرد هذه الأحبار والأساطير على
الأكثر - إلى جهن الأوائل بوطائف لأعصاء ، وجهدهم بالشروط الحيوية لى تنرم
للحمل والولادة وإمكان التناسل بين الأروح مستعدة للتسلسل فى النوع الإنسانى
فصلا على سائر الأنواع ، فكل ما يند من نوعه صاحب عددهم لتويد من الأنوع
الأخرى من الأحياء .

وقد سبق لقول التطور وتدرج الكائنات ، كما سبق انقول تحول الأنواع
وتناسلها .. ولكن لعل غير تكت اعدة ، مردى على الأرحح إلى المفصلة
وترتيب بين الكائنات على حسب حفظها من احياء أو من مشابهة الأحياء ثم
نشأت علوم الكيمياء والطب والزراعة ، فكان للعلم عمله فى التفرقة بين المواد
الكيميائية المعدنية والسانية والحيوانية . واشترك الأحياء وغير الأحياء فى مباحث
الكيمياء ، ثم جاءت فى مباحث المتأخرين مقدمة الكيمياء العنصرية بالكيمياء غير
العنصرية

ومما يشه القول بتطور الكائنات وتدرجها قول الفارابى فى شرحه لأقوال ابيهم
الأول من كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » إن « ترتيب هذه موجودات ، هو أن
نقدم أولا أحسها ، ثم الأتصل فالأفصل ، إلى أن نتهى إلى أفصلها الذى لا أفصل
مه . فأحسها لمادة الأولى المشتركة ، والأفصل منها الاسطغفات المعدنية ثم
لبت ثم احيوان غير الناطق ، وليس بعد احيوان الناطق أفصل مه »

ويذهب الفارابى على هذا الترتيب فى تفرقة بين الإنسان والانسان ، بمقدار
حظه من القوة الناطقة ، فيجبر أن يكون بعض أشباه الآدميين بالصورة الحسدية غير
محاسنين أو غير أهل للحياة الأخرى .

ويقول الكندي (١) وهو يتكلم عن طوائع لهرد : « إن هذا الحيوان عند المتكلمين
في الطوائع مركب من إنسان وبهيمة ، وهو من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى
الإنسان »

ويقول القروبي صاحب « عجائب الخبوقات » بعد تقسيمه الأجسام إلى نام
وعير نام ، وهو ما يقابل اليوم تقسيمها إلى العصى وغير العصى ، إن « أول
مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نمل منكة ظاهرة ، فإن المعادن متصلة لها
بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ،
والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، ولنفوس الإنسانية متصلة أواخرها
بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية ... »

وهذا الانتقال من المشاهدة بالحواس إلى المشاهدة بالهس شبيهة بحتراس الشونيين
العدنيين عند انفرة بين الإنسان من حننه لحيوان ولإنسان من حننه الروحي أو
حائب القوى الأديمة الوجدانية .

ويقول إخوان الصفاء في رسالتهم لعاشره : « اعلم ياأخي أن أول مرتبة النباتية
أو دوسها مما يبي التراب هي حصراء الدس وآخرها وأشرفها مما يلي الحيوانية الحل ،
وذلك لأن حصراء الدس ليست بشيء سوى صدر يتلبد على الأرض والصخور
والأحجار ، ثم يصيبها المطر فتصبح بغداة حصراء كأنه بيت ررع وحشائش ،
فإذا أصابها حر اشمس نصف النهار تحف ثم تصبح ناعدا مش ديك من نداوه الليل
وصيب السيم ، ولا تنبت الكماء ولا حصراء الدس إلا في أيام اربيع في القاع
المتجورة لتقارب ما بينها وأن للحل فهو آخر مرتبة النبات مما يلي الحيوانية ،
وذلك أن الحل نبات حيواني لأن بعض أحواله وأفعاله مما يلي لأحوال النباتات
وإن كان حننا نباتيا وفي نبات نوع آخر فعلة أيضا فعل النفس الحيوانية ، وإن
كان حننا نباتيا وهو الأكشوت ، وذلك أن هذا النوع من النبات ليس له أصل
ثابت في الأرض كما يكون لنبات النبات ، ولا له ورق كأوراقها بل هو يلتف إلى
الأشجار والبرروع ويقول والحشائش ويمتنع من رطوبتها ويتغذى كما يفعل الدود

(١) محمد بن شاذلي بن عبد الرحمن الكندي الدواني ولد في داريا من قرى دمشق وتوفي سنة ٧٤٦ وأشتهر
كتبه المشهورة « فوات الوهاب »

الذى يدب على ورق الأشجار وفصان السات وإن أدون الحيون وأنقصه هو
الذى يس له إلا حاسة واحدة وهو الحزون ، وهي ذودة في حرف أبوية تست في
تلك الصحور التي تكون في بعض سواحل اسحر وشطوط الأهار ، وتلك لدودة
تخرج نصف منحصها من جوف تلك الأبوية ، وتبسط يمينه ويسره تطلب مادة
تعلو بها جسمها ، فإذا أحست رطوبة ولينا ابسطت إليه وإن أحست محسونة أو
صلابة انقبضت وعاصت في جوف تلك الأبوية حذرا من مؤذ لحسمها ومفسد
لهيكلها ، وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ، إلا ذوق اللبس حسب وهكذا أكثر
نديدان التي تكون في الطين في قعر البحر وعمق الأهار ليس لها سمع ولا بصر ولا
ذوق ولا شم ، لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيون عصوا لا يحتاج إليه في وقت حر
المنفعة أو دفع المضرة ، لأنه لو أعطاها مالا تحتاج إليه لكان وبالاً عليه في حفظها
وبقاها . فهذا نوع حيواني نأني لأنه يست جسمه ، كما يست بعض السات ،
ومن أجل أنه يتحرك بجسمه حركة اختيارية فهو حيوان ، ومن أجل أنه ليس له
إلا حاسة واحدة فهو أنقص لحيوانات رتبة ، وتلك الحاسة أيضا هي التي يشاركها
النبات فيها ، وذلك أن النبات له حس اللبس حسب «

ويقول ابن مسكويه من علماء القرن الرابع والخامس للهجرة في كتابه تهذيب
الأخلاق بعنوان لأجسام الطيمية ، وإن لأجسام الطيمية كنها تشترك في احد
الذى يعنها ثم تتماثل بقبول الآثار لشريعة والصور التي تحدث فيها ، فإن الحما
منها إذا قبل صورة مقبولة عند اللبس صار بها أفضل من الطينة الأولى التي لا تقبل
تلك الصورة فإذا بلغ إلى أن يقبل صورة النبات صار بريادة هذه الصورة أفضل
من الحما ، وتلك الزيادة هي الاعتناء والفح والامتداد في الأقطار واجتناب ما
يوافقه من الأرض والماء وترك ما لا يوفقه ونقص الفضلات التي تتولد فيه من
جسمه بالصموج ، وهذه الأشياء التي يفصل بها النبات من الحما ، وهي حال
زائدة على الجسمية التي حددناها وكانت حاصلة في الحما ، وهذه الحالة الزائدة في
النبات التي شرف بها على الحما تتماثل ، وذلك أن بعضه يعارق الحما مفرقة
يسيرة كالرجد وأشباهاه ، ثم يتدرج فيها فيحصل له من هذه الزيادة شيء بعد شيء
بعضه ينبت من غير زرع ولا يزر ولا يحفظ نوعه بالثمر والبسر ، ويكفيه في

حدوثه متزح العناصر وهبوب لرياح وصيوع الشمس ، فذلك هو في أفق الخجالات
وقريب الحال بها ، ثم تزداد هذه الفصية في اسات ، فيفصل بعضها عن بعض
نظام وترتيب حتى تظهر فيه قوة الأتجار وحيط اسوع بالدر لدى يحلف به مثله .
فتصير هذه الحالة رائده فيه ومغيرة له عن حال ما قبله . ثم تقوى هذه الفصية فيه
حتى يصير فصل الثالث عن الثاني كفصل ثلثي على الأول ، ولا يزال يشرف
ويفصل بعضها عن بعض حتى يبلغ إلى أفعه وبصير في أفق الخيوان ، وهي كرام
الشجر كالزيتون ، والرماد ، والكرم ، وأصناف مواكبه إلا أنها
بعد مختلطة لقوى ، أعني أن قوى ذكرورها وإنشائها غير متميزة ، فهي تحمل
وتلد المثل وم تنبع غية أفعها الذي يتصل بأفق الخيوان ، ثم تزداد وتمس في هذا
الأفق إلى أن تصير في أفق خيوان فلا تحتل زياده ، وذلك أنها ، فلت زياده
يسيرة ، صارت حيوة ، وحرحت عن أفق الساب ، بحيث تتمير قواها ويحصل فيها
ذكورة وأنوثة وتقبل من فصائل الخيوان أمور تتمير بها عن سائر اسات والشجر .
كالحصل الذي طالغ أفق الخيوان بالخواص العشر المذكورة في مواضعها وم يبق
سه وبين الخيوان إلا مرتبة واحدة وهي الاطلاق من الأرض ولسمى إلى العداة
وود روى في الخبر ما هو كالأشدة أو كالممر إلى هذا المعنى وهو قوله صلى الله عليه
وسلم « أكرموا عيانتكم الحبل ، فإنها حققت من بقية طيبة آدم »
ويستفرد من مسكويه إلى ذكر الخيوان بما يشبه قول المحدثين عن أسدحة
خيوان في نثارع السقاء ، فيقول إن الخيوان « إن كان صعباً لم يصب سلاحاً
الته ، بل أعطى آلة الحرب كشده لعدو والقدرة على الحبل التي تحيه من مخاوفه ،
وأنت ترى ذلك عياناً من الخيوان الذي أعطى القرون التي تحرى له محرى لرماح ،
ولدى أعطى الأسياب والمخالب التي تحرى له محرى بسكاكين والخناجر ، والذي
أعطى آلة لرمى التي تحرى له محرى لس وإنشابات ، والذي أعطى الخواصر التي
تحرى له محرى الدبوس والطيريين ، فأما ما لم يعط سلاحاً لضعفه عن استعماله
ولضعفه شجاعته ونقصه قوته بعصية ، ولأنه لم يُعطيه لصار كلاً عليه ، فقد أعطى
آلة الحرب وأخيل بجوده العدو والخفة والخن والمروعة كالآرانب وأشبهاها . فأما
الاسد فقد عوض من هذه الآلات كلها بأن هدى إلى استعمالها كلها »

ثم يتدرج إلى أقرب الحيوان إلى الإنسان ، وهو ، الذي يحاكي الإنسان من
 نفعه نفسه ويشبهه به من غير تعميم كالقردة وما أشبهها ، ويلمح من ذلك أنها أن
 تستكنى في التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحتاج
 الإنسان إلى تعب بها وريضة لها . وهذه عاية أفق الحيوان التي إن تجاوزها وقبل
 زيادة يسيرة ، خرج بها عن أفقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتفكير
 والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها

« ولا يقف التدرج عند أفق الإنسان ، بل يواصل انبساط بين أُم لا تتصير عن
 القرد إلا مرتبة يسيرة ، وأُم تتزايد فيهم قوة التفكير والفهم إلى أن يصيروا إلى وسط
 الأنديم فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول لفصائل ، وإلى هذا الموضع
 ينتهي فعل الطبيعة التي وكلها لله عز وجل بالمحسوسات ، ثم يستعد بهذا القبول
 لاكتساب الفصائل واقتنائها بالإرادة والسعي والاجتهاد الذي ذكرناه فيما تقدم .
 حتى يصل إلى آخر أفقه . فإذا صار إلى أفقه اتصل بأول أفق الملائكة ، وهذا أعلى
 مرتبة الإنسان .. وعنده تتأحد الموجودات ويتصل أولها بآخرها . وهو لدى
 يسمى دائرة الوجود ، لأن الدائرة هي التي قبل في حدها أنها خط واحد يبتدئ
 بالحركة من نقطة وينتهي إليها بعينها . ودائرة الوجود هي المتحدة التي جعلت الكثرة
 وحدة . وهي التي تدل دلالة صادقة برهانية على موجوده وحكمته وقدرته ووجوده .
 تبارك اسمه وتعالى جده وتقدس ذكره »

إلى أن يقول مخاطب طالب المعرفة : « وحدث لك الإيمان بالصحيح وشهدت
 ما غاب عن عبرك من الدماء ، وبلغت أن تتدرج إلى العلوم الشريفة المكونة التي
 مبدؤها نعم المنطق ، فانه الآلة في تقوم الفهم والعقل العريزي ثم الوصول به إلى
 معرفة الخلائق وطاعها ثم التعق بها والتوسع فيها والتوصل منها إلى العلوم الإلهية ،
 وحينئذ تستعد لقبول مواهب الله عز وجل وعطاياه ، فبأنيتك ليعص الإلهي ،
 فتسكن عن فنق الطبيعة وحركاتها نحو الشهوات الحيوانية وتلاحظ المرتبة التي
 رقيت منها أولاً من مراتب الموجودات ، وعلمت أن كل مرتبة منها محتاجة إلى ما
 يسها في وجودها ، وعلمت أن الإنسان لا يتم له كماله إلا بعد أن يصل إلى ما قبله
 وإذا صار إنساناً كاملاً وبع عاية أفقه أشرف نور الأفق الأعلى عليه ، وصار إما

حكيمًا تامًا تأتيه الالهامات فيما يتصرف به من المحاولات الحكيمة والتأيديات العلوية في التصورات لعقلية ، وإما بيانا مؤيدا يأتيه الوحي على صروب المنازل التي تكون له عند الله تعالى ذكره ، فيكون حينئذ وسطة بين الملأ الأعلى والملأ الأسفل ولذلك تكثر حاجات الناس إلى المقومين والمنفعين . . .

وهو يحوى كلام ابن مسكويه أن الترقى الطبيعي ينتهى إلى غاية وسع الطبيعة من تربية الحسد وانعدام حسه وأعصائه ، ثم يبدأ الترقى بالعقل والخلق من فوق الحيوان إلى ما هو أعلى وأرفع وأقرب إلى الملأ الأعلى ..

ولابن مسكويه بحث كهذا في كتابه « الفجر الأصغر » يبدأ فيه من ابتدءه ، وهي ما سماه بالمركز فيفسون « إن أول أثر ظهر في عبادنا هذا من نحو لمركز بعد امتزاج العناصر الأولى أثر حركة النفس في السات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاعتدء ، واللبات في قنون الأثر مراتب مختلفة لا تحصى ، إلا أنها مقسمة إلى ثلاث مراتب : الأولى والوسطى والأخيرة ، ليكون الكلام عليه أظهر » . ثم ينهى كما انتهى بكلامه في تهذيب الأخلاق إلى آخر مرتبة الحيوان وهي « مراتب لفرود وأشاهها من حيوان الذى قارب لانسان فى خلقته الانسانية ، وبسبب بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزته صار إنسانا »

• • •

وأشار ابن خلدون إلى هذا التدرج أو التطور فترقى به من معدن إلى القرد إلى الانسان ، وعن اختلاف الناس بتأثير الإقليم وأحوال المعيشة على الابدان والأخلاق ..

قال : « إن عالم التكوين ابتداء من المعدن ثم لبات ثم لحيوان على هيئة بدية من لتدرج آخر أفق المعدن متصل بأول أفق السات مثل الحشائش وما لا بذور به ، وآخر أفق لبات مثل السحل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحزرون والصدف ولم يوجد لها إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد العريب لأن يصير أول الأفق الذى بعده . واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين إلى لانسان صاحب الفكر والروية ترتفع إليه من عالم القردة الذى اجتماع فيه الحس والادراك ،

وَمِنْ بَيْنَهُ إِبْلِيسُ الْفَكْرَ وَالرُّبُوبِيَّةَ بِالْمَعْلُومِ .. وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ أَفْقِ الْإِنْسَانِ مِنْ بَعْدِهِ ،
وَدَلَّتْ غَايَةُ شَهِيدِنَا .. »

وَيَقِي ابْنُ خَلْدُونِ أَوْهَامَ الْقَائِلِينَ بِسِسْئَةِ الْأَيَّانِ وَالطَّبَائِعِ إِلَى الدَّعَوَاتِ أَوْ
الْبُعْثَاتِ ، فَيَقُولُ إِنَّ « بَعْضَ السَّائِلِينَ مِنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِطَبَائِعِ الْكَائِنَاتِ ، تَوَهَّمُوا أَنَّ
السُّودَانَ وَهُمْ وَلَدُ حَامٍ مِنْ نَوْحٍ اخْتَصَرُوا بِلُؤْلُؤِ السُّودَانِ لِدَعْوَةٍ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَبِيهِ طَهْرٌ
أَثَرُهَا فِي لَوْنِهِ رَهْمًا جَعَلَ اللَّهُ مِنَ الرُّقَى فِي عَقْبِهِ .. وَدَعَاءُ نَوْحٍ عَلَى أَبِيهِ حَامٍ قَدْ وَقَعَ
فِي التَّوْرَةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ سُودَانٍ .. وَإِنَّمَا دَعَا عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ وَدَدَهُ عَيْدٌ يُولَدُ
بِحَوْثِهِ لَا عَيْرٍ .. وَفِي الْقَوَائِمِ سِسْئَةُ السُّودَانِ إِلَى حَامٍ عِنْدَ مِنْ طَبِيعَةِ الْخَرِّ وَابْرَدَ وَأَثَرُهَا فِي
الْهَوَاءِ ، وَهِيَ يَتَكَرَّرُ فِيهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ »

وَيَقُولُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ « اسْتَوْلَى الْخَرُّ عَلَى أَسْدَانِهِمْ وَفِي أَصْلِ تَكْوِينِهِمْ ، فَكَانَ
فِي أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْحَرَارَةِ عَلَى سِسْئَةِ أَسْدَانِهِمْ .. وَكَذَلِكَ يَلْحَقُ بِهِمْ قَلِيلًا مِنْ أَهْلِ الْبِلَادِ
الْبَحْرِيَّةِ فَإِذَا كَانَ هَوَاجُهُمَا مُتَصَاعِفًا لِلْحَرَارَةِ نَحْوًا يَعْكُسُ عَلَيْهِ مِنْ أَصْوَاءِ سَيْبِطِ الْبَحْرِ
وَأَشْعَتِهِ »

وَيَصَحِّحُ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ ، بَعْلَهُ يَسْقِي إِلَى الْوَهْمِ مِنَ الْقَوَائِمِ تَتَدَرَّجُ الْكَائِنَاتُ ،
إِذَا يُجَلُّ إِلَى الْخَالِصِينَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ يَعْنِي الْكَائِنَاتُ فِي دَرَجَةِ دَرَجَةٍ مِنْ مَرَاتِبِهِ الْمُرْتَقِيَةِ ،
وَأَنَّهُ حَقَّقَتْهُ كَمَا قَالَ الْخَلَّازِيُّ : « إِنَّمَا إِذَا قَدِمْنَا إِلَى لَأْسَانِ بَلْعٍ حَدِّ الْكَمَالِ وَكَانَ يَوْمًا
عَجَلًا فَصَارَ حِمَارًا فَعَدَا حِمَارًا فَأَصْحَى بَعْدَهُ قَرْدًا ، فَلَيْسَ بِمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَوْمًا
عَجَلًا فَصَارَ حِمَارًا فَعَدَا حِمَارًا فَأَصْحَى بَعْدَهُ قَرْدًا حَتَّى صَارَ فِي النِّهَايَةِ إِنْسَانًا »
فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُرُوقِ أَنْ يَكُونَ كُلُّ كَائِنٍ رَهْمًا قَدْ تَعَمَّلَ قَبْلَ ذَلِكَ بَيْنَ
أَطْوَارِ الْكَائِنَاتِ الَّتِي هِيَ دَوْنُهُ ، وَإِنْ كَانَ جَمِيعُ التَّنَكُّسِيِّينَ فِي أَطْوَارِ الْكَائِنَاتِ الْحَيَّةِ
لَا يَجْمَعُونَ إِمَّاكَانَ التَّسَاهُلِ بَيْنَ الْحَشَرَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، كَمَا جَاءَ فِي كُتُبِ الْحَيَوَانِ
جَمِيعًا ، وَأَسْهَدُ ، فِيهِ الْجَاهِظُ عَلَى الْخُصُوصِ إِسْمُهُ سَيْبُطُ فِيهِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ خَرَافَاتِ
الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ وَاللَّاحِقِينَ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ ، وَأَكْثَرُهُمْ تَرْدِيدُ هَذِهِ الْخَرَافَاتِ الْقُرُوبِيَّةِ
صَاحِبِ عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ .. فَهُوَ حَافِلٌ بِالْأَسَاطِيرِ عَنْ اِخْتِلَاطِ أَنْوَاعِ الْأَحْيَاءِ ،
وَعَنِ الْخَلَائِقِ الْأَسْطُورِيَّةِ الَّتِي انْقَرَضَتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا عِبْرَاتُهَا وَأَحْبَارُهَا ، وَعَجَائِبُ
الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تَتَوَافَرُ الْأَحَادِيثُ عَنْ وَجُودِهَا فِي الْأَطْوَارِ السَّائِلَةِ نَحْوُ مَا يَصِلُ إِلَيْهَا

أحد غير من ضل طريقه أو حجت به السهم من الملاحين والمعررين ، وهذه الأساطير كم قلنا في غير هذا الكتاب^(١) - تنفعا الآن أكثر مما تنفع حقائق تلك الكتب لأنها هي لبقية الناقبة لنا من تلك الأوهام التي تسلط على العقل البشري في أزمانه الخالية ، وهي المفتاح لدى ليس لدينا مفتاح سواء خزانة الخيلة ، وما أكنته من تصورات الإنسان ووجدانه وما اطلع فيها من الدلائل العميقة المتعلقة بالتي صودتنا أن تنطق بالأحاجي والأسرار ونهم حتى على صاحبها وهو الذي أوجدها وصورها . وهذا الكتاب الذي نحن بصدد مكشط تفصيل أنواع هذه الحيوانات وما يشاكلها في البر والبحر - منها كلب الماء وقنعد الماء وبقرة الماء وفرس الماء ، ورعوموا إنها تلك من حيل الأرض ، ومنها إنسان الماء ويشبه الإنسان إلا أن به دنا . وقد جاء شخص بواحد منه على قول القرويني - إلى بغداد فعرضه على الناس ، وذكر أنه في بحر الشام بعض الأوقات بطيح من الماء إلى الحاصرة إنسان ، وله خيعة بيضاء يسمونه شيخ البحر ويبقى أياما ثم ينزل ، فإذا رآه الناس يستبشرون بالخصب ، وحكى أن بعض المنوك حمل إليه إنسان مائي فأراد الملك أن يعرف حاله ، فزوجه امرأة فعاء منها ولد يفهم كلام الأبوين ، فحين لولد - ماد نقول أبوك قال أدياب الحيوان كلها على أسافلها فما بال هؤلاء أديابهم على وجوههم وتقل عن يعقوب بن اسحاق السراج أن رجلا ركب لحر فألقته الريح إلى حرية « فأتى قوم وجوههم كوجوه الكلاب وسائر أديابهم كأبدان أساس » وهذه الأساطير وما شاكلها قد تدرس على أنها تعبيرات من عمل خيعة في فهم الصورة العبيدة برمسها أو مكاسها ، وقد تدرس على أنها ترجمات بلوعي اباطن الذي استمر في أعماق بديهة الإنسان وغرائره الوراثية ، ولا بد أن تدرس في جميع الأحوال لأنها هي بصح أن يعتبر « مسودات » للادراك الإنساني تظهر في كل عصر ولا تزال في كل عصر معلقة بين الشك واليقين وبين الوهم والصدق في انتظار التصحيح والتفحيح .

(١) كتاب الأصول بمؤلف

أثر مذهب النشوء في الغرب

قوبل إعلان مذهب النشوء في الغرب بنورة عاصفة من حملات الاستشكار والتكفير في اليثبات الدينية ، ويرى بعد انقضاء أكثر من قرن على إعلان هذا المذهب أن حملات الدينيين عليه في البلاد الغربية لم تكن أحدى ولا أليق بالبحث الدقيق أو العننى من أشبه هذه الحملات التي قوبل بها في بلادنا الشرقية يوم انتقل إليها للمرة الأولى ، كما سيبه فيما يلي :

نقد حرم بعض معاهد العلم تدريس مذهب النشوء ، فظل هذا التحريم باقياً الأثر إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى بسنوات ، وحوكم الأستاذ سكوب في دابن (شهر يوليو سنة ١٩٢٥) لأنه خالف القانون الذى حرم تدريس المذهب لخروجه على العقيدة الدينية ، وهذه بعض الأسئلة والأجوبة التي سجلت أثناء المحاكمة بين محامى المدعى وخبير الاتهام :

- هل تقرر أن كل ما ورد في التوراة يبعى أن يقبل بتصديره لحرف .
- أنا أقرر أن كل ما ورد في التوراة يسعى أن يقبل كما ورد فيها . وبعض ما جاء في التوراة قد ورد في سياق التشبيه ، كقوله « إنكم مدح الأرض » . فلا استنرم من ذلك أن الانسان كان ملحاً أو أنه كان له دم من الملح ، وبكى أفهمه كما أنهم معنى شعب الله المختار . .

هل لك أن تخبرنى يامستر بريان كم حمر الكرة الأرضية ؟

- كلا ياميدى . . ست أدرى .

- ولا على وجه التقريب ؟

- لست أحاول . ولكن أقرب من تقدير العلماء ، وبكى أحب أن أدقق كثيراً

قبل اجواب

- إنك لا تعباً كثيراً بالعلماء . . أتعباً بهم حقاً ؟

- نعم ياميدى . .

- أعتقد أن الكرة الأرضية صنعت في ستة أيام .

- ستة أيام نعم . . ولكنها ليست أيام الأربع والعشرين ساعة .

* * *

وقد احتدم الجدل أثناء الاستجواب حتى اندفع العريضان إلى التشهير بالعقائد الشائعة والمذهب العلمية التي كانت مباحة للناشرين محرمة على المعلمين ، وكان أثر الصلحة التي رددتها الصحف والأندية الثقافية حول هذه الحكمة أن قانون التحريم سقط بالاهمال ثم بالالغاء .

إلا أن الباحثين ادبيين عدوا أخيرا عن لتحريم بقرة القانون إلى مناقشة المذهب بالبراهين العلمية ، فأحد مهم فريق في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الروايات الدينية بمعانيها الرمزية ، وأحد الفريق الآخر في إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها انعماء ولا يراون يستندون إليها إلى هذه الأيام .

فصدر بعد الاحتفال بانقضاء ستين سنة على إعلان المذهب ، كتاب من كتب البحث العلمي عن الطريقة الدينية ألّفه الأستاذ ث . ب . بيشوب وسماه : « الشوهد مستندا »^(١) ولم يتزحرج فيه عن نصوص الكتب ، ولكنه أخرج من هذه النصوص ما يتناول الفترات التي اضطرب فيها روايات لتاريخ كالفترة بين انقضاء ووهود الخليل إبراهيم إلى كنعان ، وأخرج منها لفترات التي لا تتعارض فيها النصوص ولشهود الجيولوجية ، ثم بيّن انتقاده لمذهب على مطالعة الشوثيين بالدليل . . لأن العصور الجيولوجية لم تتكشف قط عن أساس يحالف في تكوينه الثالث تكوين النوع الانساني في صورته الحاضرة ، ولم تنب من آثار الطورياء الجيولوجية بقية من أنواع الأحياء الأولى ، بل يرجح أن أقدم هذه العصور لا يعود بنا إلى مسافة أبعد من منتصف الطريق . كما رأى رالاس شريك دارون حيث يقول في كتابه عن عام الحياة : « إنه من المحتمل جدا أن السجلات الجيولوجية الباقية لا تحملنا إلى أبعد من منتصف العمر الذي عمرته الحياة على الكرة الأرضية »

فبمس في السجلات الجيولوجية دليل ولا قرينة تؤيد القول بتطور الانسان من نوع آخر ، وأهم من ذلك أنه لا يوجد أمام دليل يؤيد تحول الأنواع في عالم الحيوان أو عالم النبات ، وإن نشأه الأجنة الذي يتحدده بعض الشوثيين دليلا على التشابه

أقدم بين أنواع الحيوانات دبل مكدوب ، لأن صور الأجنة الصحيحة لا تبرر هذا
الشبه ، وماعدا ذلك من لصور المشبهة فهو مرور باعتراف وصح تلك الصور
العالم الألماني ارست هكل ، فإنه أعين بعد تنقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى
تكتم الشبه في محور ثمانية في المائة من صور الأجنة بنقص الرسم منقول

وم بدع يشوب ديبلا عيب بعير تعقب عيه ، يستند إلى أقوال العلماء
المختصين فقد إن حصان خفريات على أقدم صورة لها يشت من سبته إلى نوع
الخيل غير الأسن ، وإن الصائر الذي قبل إنه الحلقة المعقودة بين الزواحف ولطير
لم يتعه قط في تسلسل الخفريات طائر دو أسن ، وأيا كان نظام التطور بالنسبة إلى
الحائقي فالعالم النشوي الأمين عي عيه لا يتحده سسا من أسباب الاتحاد ، وكديث
كان والاس مؤمنا بالعقل المدبر كما كان في كتابه عن عالم حياة ، إذ يقرر جارما
باعتناده « إن ما تتطلبه - إطلاق - ولا ماص من الاستدلال عيه ، هو ذلك العقل
الذي هو أسمى وأعظم وأقوى من كل هذه العقول المنفرقة التي تراها حوسا وإنه لعقل
لا يقدر على تفسير هذه القوى العاملة في الأنواع الحية وعي إرشادها وتديرها
وحسب ، بل إنه هو مداته يسوع تدث القوى والعوم ، ويسوع لما هو الأساس
الأول لكل ما في هذه العوالم المادية . »

ويؤحد من متبعة الفترات التي يستعاد فيها النقاش حول أصل الانسان أهم
ترتبط بالحق « الروحية » التي تثير مشكلات العالم الكبرى ، وأكبرها في القرن
العشرين مشكلة الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، وقد تكون المناسبة
لاستعادة النقاش تدرجية من قبيل الدكريات الموقوتة بالعثرت أو بالثبات من
السين ، ولكنها إنما تستعاد في هذه المناسبات بواعث الشكوك والمنارعات التي
تصاحب الحروب العالمية والعن الاجتماعية ، ولهذا كانت هبة الحرب العالمية الثانية
دورا من أهم أدوار البحث في مذهب النشوء يدعت إليه من بحوث متشعبة في
تنازع البقاء وإرادة القوة ، وفي تفسير التاريخ بالعوامل الاقتصادية أو بالعوامل
العسكرية والروحية ، وفي هذه السنة - سنة ١٩٤٥ - تدفقت الكتب التي تعرض هذه

المباحث بأقلام علماء الطبيعة وعلماء اللاهوت ، ولكن مؤلفات للاهوتيين في هذه الفترة لم تكن دون مؤلفات العلماء الطبيعيين في حجاج العلم وشواهد التجربة وصدق النظر في أقوال الأنصار والخصوم ولعل أجمعها مما اطلعنا عليه كتاب « الله والانسان والكون »^(١) الذي توهج على تأليفه بحجة من الباحثين الدينيين يعرضون وجهات النظر الكاثوليكية ، في تحقيق كل فلسفة تبحث في الأصول ، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة وأصل الانسان وأصل النظام الاجتماعي وما يتشعب عن هذه الأصول من البحث في مشكلة الشر وتاريخ الكنيسة ورأس المال والمادية الدركسية وغيرها من مشكلات لاسد التي تتوالى في كل زمان بأسلوب وعنوان

وقد استفاد مؤلفو هذه المجموعة من جميع المعارك العلمية التي نشرت بعد الحرب العالمية الأولى ، ولم تكن متداولة بين لكتتاب اللاهوتيين في الربع الأول من القرن العشرين ، وأمعوا في التفصيلات التشريحية التي كانت عملة في العقود الواسعة بين تركيب الفرد وتركيب الإنسان ، ولا سيما الدور المميز للإنسان الناطق .. وهو قوام الفصل بين النوع الآدمي وعامة لأنواع العبيد فهذا الفارق الواسع في الملكات العقلية يقابله فرق دقيق في تكوين الدماغ ، يبيِّن استحالة انطق بعير هذا التركيب للإنسان الخاص بدماغ الإنسان دون سواء فالرأس الإنساني يحتوى جميع المناطق التي وضعناها في ربوع القردة ، ولكنها تنحصر بمناطق أخرى تسمى بالمناطق الثانوية أبررها تلك المنطقة الخاصة بمراكز لأصوات الكلامية ، وهي مستحيلة بعير الاتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والسمع مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز الحس والسمع بل البصر كذلك فهناك مركز للنطق في مقدمة مراكز الحركة في الوجه ، ومراكز بصرية للكلام في المنطقة المخارية ، ومراكز سمعية في الفص الصدغي ، وهناك مراكز الحركة يستمع المعجز عن الحركات للتقديرة الضرورية للنطق بعير

(١) God, Man and the Universe

يعطى عمل سمات والشعشع كذلك تستمع اذات البصر عجزاً عن وراء الكلمة المكتوبة ، كما تستمع اذات السمع عجزاً عن فهم الكلمة المنعومة وإن تيسر سماعها . ويصاف إن هذه المراكز مراكز أخرى حتمية يرى بعضهم أنها مقر لأدق الوظائف لسيكولوجية ولا يوجد غير الشمياري بين القردة لمعاصرة حيوان به مناطق ثابتة ذات امسداد حد ضعيف *

وعلى هذه الوثيرة المطردة يؤدي هؤلاء العلماء اللاهوتيون أمانة العلم الطبيعي لا يبرار موضع انشبه في أدلة مذهب اششوء وقرائه التي ترتفع إلى قوة الدليل ، فهم يوسعون لفارق عية التوسع المحتمل في حدود لمقررت العلمة ، ولا يدعون فارفا حقياً منها وضحوه وكبروه وسعوا به غابة الشك ، وباعدوا عاية المعد بينه وبين مرجحات اليقين ، وم يقصروا ذلك على الأدلة أو القرائن التي يستند إليها الشوثيون للقول بتحول نوع الانسان من الأنواع اندب من شمسوا به كل دليل وكل قرينة تدعم فروض التحول بين نوع ونوع من الحشرات والأسماك والروحف والطيور والعقاريات ، ومنها المنسقات وغير المنسقات . .

وقوب مذهب اششوء باعتراض شديد بين علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية ، وطلبوا من دعائه دليلاً محسوس على فعل الانتحاب الطبيعي في تحول الأنواع ، ولا سيما نوع الانسان فالمعتصون عليه طلبوا للأدلة الطبيعية - لا يقنون عدداً ولا اعرض عن المعتصين اللاهوتيين وقد أيدته أناس من كبار علماء الطبيعة وتحمسوا لتأييده ، فكان تحمسهم له باسم حرية ابرأى أشد من تحمسهم له لإيمان بحقيقته واعترافاً بكفاية براهينه. من هؤلاء لعلماء - بل من أشدهم حماسة له - توماس هكسلي صديق دارون وصهره ومدره^(١) المذهب كنه في حياته، فإنه م يرعم قط أن أدلة لانتخاب الصيحي المؤيد لتحول الأنواع كافية لتقرير هذه النتيجة ،

(١) مدره القوم والمذهب هو المدافع عنه الذي يدراً عنه كل هجوم وعنوان

ولما كان يقول إن الانتخاب الطبيعي يفسر لنا جملة من الظواهر والمشاهدات تبقى
 غير تفسر لو لم نتقبل مبادئ الانتخاب الطبيعي كما عرضها دارون بعد تعديده لآراء
 لامارك، ويرى العالم البيولوجي الكبير أن نظرية التطور على أساس الانتخاب
 الطبيعي ، إنما هي نظرية منطقية وليست بالنظرية التي تعتمد على شواهد لتحرية
 والأدلة الحسية . فإن في رده على هربرت سبسر : «إسألني ستطيع أن تثبت
 بمشاهدة عملية الانتخاب لطبيعي » وأن قول هربرت سبسر « إنه إن أن يحدث
 وراثته للصفات المكتسبة أو لا يحدث تطور على الإطلاق » إنما هو دليل منطقي وليس
 بالدليل التحريبي ، وهو مع ذلك ليس بالدليل المنزوم في قضايا المطلق ، لأن تحليل
 التطور بغير وراثته الصفات المكتسبة ليس بالفرض المستحيل

وبقيت هذه العقدة عصبية ، حل على انقائين بالتحول النوعي إلى اليوم ، فلم
 يتقدم أحد من النشويين عند الاحتفاء بذكرى كتاب أصل الأنواع (١٩٥٨)
 بدفع حاسم لشكوك المترددين في قبول تحول الأنواع . وقد كتب دوبرسكي
 Dobzansky أشهر مختصين البيولوجية النوعية فصلا عن الأنواع بعد دارون في
 مجموعة « فن من دارون » فلم يحاول تهوين القضية ، ولكنه راد أسباب
 جديدة لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى النسلات والصعوبات في أرحام أفراد
 الحيوان النشيطة ، وراد أسباب أخرى لبيان الصعوبات التي تحول دون تلاقى لفردين
 من نوع واحد أحد في لتساعد والاختلاف ، ومن ذلك نقص الألفة بين الذكور
 والإناث كلما انتعدت أشكالها ولو بقيت نسلاتها وصعوباتها قابلة للتزاوج والانقسام
 إلى تمام تكوين الحين

وآخر ما نعلم من أطوار هذه المشكلة أن البحث عن الحلقة المفقودة ، ينتقل الآن
 من سلسلة الأنواع إلى سلسلة النسلات Genes ولصعوبات وأن الأمل في
 الوصول إلى هذه الحلقة من استقصاء تاريخ النسلات phylogeny أقرب في رأي

البيولوجيين من استقصاء تاريخ الأنواع ، وقد ألف الأستاذ برنارد ريش أستاذ علم الحيوان بجامعة ميونستر كتابه عن التطور فوق مستوى الأنواع^(١) ليشرح هذه المفكرة ويبين أن عزو النوع إنما يتم بالمراد بالسلالة وأن البحث في تاريخ تغير السلالات هو مرجع البحث الأصير للوصول إلى الحلقة التي تفصل بين ما تقدمها وما تلاها ، وتنشئ شروطاً جديدة للسلسل والوراثة فتعتبر بدلت حداً فاصلاً بين نوعين . فليس من السهل أن نستظر تحول الأنواع بعد تطورها وابتعاد أواخرها من أوائها الموهلة في التقدم ، ولكن إذا اكتشفنا سر تطور السلالات وانعزالها بخصائص التوريث دفعة واحدة أو على درجات متقاربة فما هنا محل الحلقة المفقودة في سلسلة الأنواع .

مَذْهَبُ التَّنْظِيرِ فِي الشَّرْقِ الْعَرَبِيِّ

من خصائص مذهب داروس على ما يظهر أن يشيع على نحو واحد قبل الوقوف على شروحه وبراهينه ، وأن يثير صرورا متقاربة من الاعتراض في مواطن العقيدة والثقافة العامة . فإنه نرى في الشرق العربي مثل ما نقيه من التحريف والاعتراض في البلاد الأوروبية . و من آثار السماع به ثم الاشاعة عنه ثم الرد عليه بين مصكرين وقراء انعم نشريقين كما تناهت قبل ذلك بين مفكرى الغرب وقرائه ، وتكرار هذا كله في الشرق العربي كأنه يحدث للمرة الأولى ، ولم تنقش شهادته عن حقائقه إلا بعد اثورة المفاجئة التي يظهر كما أسلفنا أنها مقدمة لابد منها وأثر من آثار الصدمة الشعورية المفاجئة لا يحصى عنه

وقد تصدى لرد عليه في الشرق لاسلامى عامة ، والشرق العربى خاصة ، نحة من المفكرين وهذه الاصلاح والمجتهدين من أتباع جميع الأديان لكثية ، وناقشوه كما شاع لأول وهنة بين العربيين من قبل كأنه مذهب يستلزم إنكار الخلق ويرغم أن انصرده حدود نشر أجمعين ، فكل إنسان حديث فهو نسل متأخر نقر قديم .

وقبها يتصور القارئ المعصرى أن مذهب كمذهب التنوير يشيع في الشرق العربي قبل مائة سنة ، ويتصدى للرد عليه عدد من الكتاب كذلك العدد الذى بقيت لنا بعض كتابه واضوى أكثرها في روائ المطبوعات المنهجرة من المصنفات والشرائح الصحفية . لأن القارئ المعصرى يحسب أن مذهب التنوير قد وصل إلى الأمم الشرفية وهى في « جاهلية » لا تسعها دعوة عالم أو مفكر من أبناء الأمم لأجبية . ولكن الواقع أن « جاهلية » القرن لتاسع عشر لم تكن في شرق العربى حجابا دون المذاهب الفكرية التي يطلع عليها الأورب المثقف في حينها . ولم يكن مذهب كمذهب التنوير ليسع في حيز محدود بين حدود وض واحد وهو يتحدث عن سبب الإنسان حينما كان ، في رسم يتحدث فيه لناس عن شيء كما يحدثوا عن مصاحر للأمم بالأصوب الإنسانية وبالأنسب التي يدعيها السادة لأنفسهم ويكرونها على الرعايا المستعبدين

وسنحتار في هذا الفصل أمثلة من مناقشة اسدب كما فهمه في ذلك العصر أصحاب لاحتداد ورواد لسكر من المسلمين والمسيحيين ، ومهم أهل السنة والشيعه .
وأندع الكنائس الشرقية والعربية في بلاد العالم العربى ، وقد وصت أصداء لردود
التي كتبها المشهورون من أولئك لسكرين إلى أطراف البلاد الاسلاميه في الهد
والصبر .

قال السيد جمال الدين الأعماى من أئمة المصلحين من أهل السنة في كتاب الرد
على الدهريين :

« رأس القائلين بهذا انقول داروين وقد ألف كتابا في بيان أن الانسان كان
قردا ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدريج على تنالى القرون المتطاولة
وتأثير الفواعل الطبيعية الخارجيه حتى ارتقى إلى برزخ أوران أوتان ، ثم ارتقى من
تحت الصورة إلى أول مراتب الانسان فكان صف اليعم وسائر الزواج ، ومن هناك
عرح بعض أفراده إلى أفق أعلى وأرفع من أفق الزمحين فكان الانسان القوقاسى
ووعى زعم داروين هذا ، يمكن أن يصير البرغوث هبلا عمور القرون وكر
الدهور ، وأن ينقلب الفيل برغوثا كذلك .. فلان سئل داروين عن الأشجار لقائمة
في غابات اهد والساعات المتولدة من أزمان بعيدة لا يحدها التاريخ ، إلا ظنا ،
وأصولا تصرف في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقى بماء
واحد ، فما السبب في اختلاف كل مها عن لآخر في بيته أو أشكل أوراقه وطوبه
وقصره وصحمة ورقته وزهره وثمره وطعمه ورائحته وعمره ، فأى فعل خارجى أثر
فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء ؟ .. أظن لا سبيل إلى الجواب
سوى العجز عنه .

(وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وعمر كسبيى تشاركها في المأكلى والمشرب
وتساقطها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتدينا بعيدا في الألوان
والأشكال والأعمال فما السبب في هذا التباين والتفاوت ، فلا أراه بلجأ فى
الجواب إلا إلى الحصر ..

وهكذا لو عرضت عليه الحيوانات المختلفة البنى والصور والخواص ،
وهى تعيش فى منطقة واحدة ولا تسلم حياتها فى سائر المناطق من الحشرات المتباينة

في الخلقة ، المتباعدة في التركيب ، المتولدة في بقعة واحدة ، ولا طائلة لها على تصع المسافات البعيدة . ثم اذا تكون حجته في عنة اختلافها بل إذا قيل له أي هدى هدى تلك الحرائم في نقصها وحداجها .. وأي مرشد أرشدنا إلى استنهام هذه الجوارح والأعضاء الظاهرة والباطنة ووضعها على مقتضى الحكمة وإبداع كل منها قوة على حسبه ووطئها بكل قوة في عصفو أداء وظيفته وإيضاد عمل حيوى مما عجز الحكماء عن درك سره ، ووقف عديماء الفسيولوجيا دون الوصول إلى تحديد منافعه ، وكيف صارت الصلوة العمياء معلما لثنت الحرائم وهاديا حبيرا بطرق جميع الكمالات الصورية والمعنوية فلارب أنه يقع قبوع الفئعة ويتكسر بين أمواج الخيرة ، يدفعه ريب ويتلفاه شك إلى أبد الآبدين ..

« وكأنى بهذا المسكين وما رماه في مجاميل الأوهام ومجاهيل الخرافات إلا قرب المشابهة بين القرد والاسنان ، وكان ما أخذ به من الشبهة الواهية ألهمية يشعل بها نفسه عن آلام الخيرة وحسرات العماية .

« ولما نورد شيئا مما تمسك به ، فمن ذلك أن الخيل في سيبيريا وبلاد الروسية أطول وأغزر شعرا من الخيل المولدة في البلاد العربية ، وإنما عنة ذلك لضرورة وعدمها . ونقول : إن السبب فيما ذكره هو عين السبب لكثرة البسات وقتنه في بقعة واحدة لوقتتين مختلفتين حسب كثرة الأمطار وقلتها ووجور المياه وبرورها أو جدد علة المحافظة ودقة العود في سكان البلاد الحارة .. والضحامة والسمن في أهل البلاد الباردة مما يعترى البلدن من كثرة التحلل في الحرارة وقتنه في البرودة

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون أذناب كلابهم فلما واطبوا من عملهم هذا قروما صارت الكلاب تولد بلا أذنان .. كأنه يقول حيث لم يعد للذئب حاجة كتب لطبيعة عن هبته ، وهل صمم إذن هذا المسكين من سماع خبر العيرانيين والعرب وما يجرويه من الختان ألؤفا من السنين ، لا يولد مولود حتى يخنر وإلى الآن لم يولد واحد منهم مخنونا إلا لإعجاز

« ولما ظهر لجماعة من متأخري الماديين فساد ما تمسك به أسلافهم ، نبذوا آراءهم وأحلوا طريقا جديدة فقدوا ليس من الممكن أن تكون المادة لغارية عن الشعور مصدرها لهذا النظام المنتقن والهيئة البسيمة والأشكال العجيبة والصور الأليقة

وغير ذلك مما حتى سره وظهر أثره ، ولكن العلة في نظام الكون علويه وسليمه .
 والموجب لاختلاف الصور والمقدر لأشكالها وأطوراها وما يلزم ببقائها تتركب من
 ثلاثة أشياء متبير ، وهورس ، واتليجنس ، أى مادة وقوة وإدراك ، وطورا أن
 المادة بما لها من القوة وما يلامسها من الإدراك تجلت وتجل هذه الأشكال واهيئات ،
 وعندما تظهر بصورة الأجساد الحية ناتية كانت أو حيوانية تراعى بما يلائسها من
 الشعور وما يلزم لبقاء الشخص وحفظ النوع ، فتتشىء لها من الأعضاء والآلات ما
 يى بأداء الوظائف الشخصية والوعية مع الالتفات إلى الأزمنة والأمكنة والفصول
 السوية هدا أنفس ما وجدوا من حيلة لمذهبهم العاطل بعد ما دخلوا ألف حجر
 وحرحوا من ألف نفق ، وما هو أقرب إلى العقل من سائر أوهامهم ولا هو بالمنطق
 على سائر أصوهم ، فانهم يرون كسائر المتأخرين أن الأجسام مركبة من الأجزاء
 الديمقراطية سسة إلى ديمقراطيس - ولا ينطبق رأيهم الجديد في هذا النظام
 الكونى على رأيهم في تركيب الأجسام ، وذلك لأنه يلزم عن القول بشعور المادة أن
 يكون لكل جزء ديمقراطيسى شعور خاص ، كما يلزم أن تكون له قوة خاصة بتفصل
 بها عن سائر الأجزاء ، إذ لا يمكن قيام العرص الواحد وحدة شخصية بمحليين ،
 فلا يقوم علم واحد بجريئين ولا بأجزاء ..

وبعد ذلك فأنى سائلهم كيف اطلع كل جزء من اجزاء المادة مع انفصالها
 على مقاصد سائر الأجزاء واية آلة أهم كل منها بقاها عما يويه من مطلبه ؟
 وأى برلمان أو أى سنات - مجلس شيوخ عفتت للتشاور في إبداع هذه المكونات
 العاية التركيب الديبية التأليف ؟ وأنى لهذه الأجزاء أن تعم وهي في بيصة
 العصور ضرورة ظهورها في هيئة طبرياكل الحبوب فمن الواجب أن يكون له منقر
 وحوصلة لحاجته في حياته إليها ؟ ..

• • •

وبعد كتابة « الرد على الدهريين » بسحو ثلاثين سنة ، ظهر كتاب نقد « فلسفة
 دارون » لمؤلفه الشيخ « محمد رضا آل العلامة التقي الأصمهانى » وهو باحث حاصل
 من علماء الشيعة بكرىلاء المعلى ، تحرى الطر في مجموعة وافية من مراجع مذهب
 النشوء العربية والأهرجية التى وصلت إلى الشرق الإسلامى بعد كتابة « الرد على

الدهريين ، ولم يقع مما اطلع عليه من هذه المراجع ، بل أرسل في طلب غيرها من المراجع المستحدثة ، ولكنه ألف كتابه ولم ينتظر وصولها إليه لولا « الباعث الديني » كما جاء في مقدمة الكتاب حيث يقول إن دارون وسائر رؤساء هذه الفلسفة ألفوا كتابا غير موجودة عندنا « وكان الحرم تأخير تصنيف هذا الكتاب إلى زمن وصولها لولا الباعث الديني وظننا أنه يوجب علينا التسارعة ولا يبعد أن يكون قد صعد دليل قد فرغ هؤلاء من إثباته أو كبرى حجة المذكور في كتبهم برهانها ، وأن أقترح عليهم أن يجابروا بما يجدونه منه ومن أمثاله لسنظر فيه ، ولهم علينا أن يستعمل الإنصاف لا المكابرة .

ولم يقصد المؤلف بالباعث الديني أن يقصر ردوده على مناقشة الآراء التي تخالف الديانة الإسلامية دون سائر الديانات ، ولكنه أراد أن ينقص أدلة الاتحاد التي تعرض الايمان بالله وبالعقائد الالهية على إحمافا ، وقد قال في كلمته الخاصة بالمؤمنين « نعلم أن كتابي هذا موضوع للدفاع عن الدين المصنق في قبال اللادين المحض ، لا للانتصار لدين على دين . ولقد ترأى أدفع ما استطعت عن أديان لا أسحبها ومذاهب لا أقول بها ، لأن أحد هؤلاء لا يثلب دينا إلا وقصده ثلب الأديان عامة ولا يرى على شريعة إلا لسرى اررؤه إلى الشرائع قاطبة . » وأنصف المؤلف مذهب المشوء فلم يحسبه من مذاهب الاتحاد والتعصيل لأن يقول بالمشوء لا يقتضى إنكار الخالق وإنما يتسرب إليه الاتحاد من تفسيرات اللادين لمقدماته على الوجه الذى يوفق نتائجهم المقررة عندهم قبل ظهوره . فيقول المؤلف عن فلسفة المشوء والارتقاء إنها « ليست مما بنى الدين ، إذ الذى يجب علينا اعتقاده هو أن جميع المرحودات بأراضها وسماواتها وما فيها من صوف المخلوقات من نباتاتها وحيواناتها ، والبشر على صوفها واختلاف لغاتها ، صنع إله واحد قادر حكيم قد وسع كل شئ عبدا وأتقنه صنع خلق جميع الأصناف من جميع الأنواع عن قصد واختيار ، وهذا أمر متفق عليه في جميع الأديان ، وأما كيفية الخلق وأن هذه الأنواع كلها خنقبت خلقا مستقلا ، ووحدت من كتم العدم ابتداء ، وأنها لم تتغير عما وجدت عليه في أوائل الخلق ، فهذا أمر لم يرد فيه نص صريح من الكتاب ولا متواتر من السنة ، وسواء كانت آباء الحمل جهلا أو كانت ضفادع تنق في الماء ،

والجد الأعلى للقبيل فيلا أو « سوبوا » بطير في الهواء ، فان أدلة الصنع عليهما في
الحايز ظاهرة ، وهما على وجود الصانع الحكيم آيات باهرة . ففرصة الملاحظة بهذه
الآراء وجعلها أساسا للالحاد من أغرب الأشياء »

ثم يقول المؤلف إن هذه الآراء « ليس فيها إلا بيان ترتيب المخلوقات وكيفية
لصنع فيها ، ومتى كان أهل الدين يذكرون ذلك ويدعون أن الله تعالى خلق جميع
الأشياء في وقت واحد خلقا مستقلا عن الآخر ؟ وهم يرون الله تعالى يخلق
حكمته وبيد صمته يخلق النمر من الشجر ، والشجر من التوبة ، ولا يجعل العيب
حلوا إلا بعد ما يحميه حامضا ولا يجعله حامضا إلا بعد ما يجعله مرا »

ويستطرد المؤلف إلى تلخيص آراء التشويشيين الذين آمنوا بالخالق ، ثم يرجع إلى
أقوال الأقدمين من الممجد الدين انتسوا إلى القردة كما انتسوا إلى غيرها من الحيوان ،
ويرجع بعد ذلك إلى أقوال أئمة المسلمين الذين عرفوا انشئه بين الانسان والقرد ،
ولم يذهبوا مذهب دارون في تعريله على وجوه انشئه وإعراصه عن وجوه الخلاف
فيقول : « إن أئمة المسلمين وعلماءهم ذكروا ما هو أعرب وأقرب » ويستشهد
بكتاب التوحيد الذي أملاه لآمام جعفر الصادق على الفضل بن عمر الخفيع ، ومنه
على رواية المؤلف : « تأمل خلق القرد وشبهه بالانسان في كثير من أعضائه ، أعين
الرأس والنوحة وسكين ، وكذلك أحشائه أيضا شبيهة بأحشاء الانسان ، وخص
مع ذلك بالدهن والعظنة التي بها يهيم من سائسه ما يومي إليه ، ويحكى كثيرا مما
يرى الانسان يفعله ، حتى أنه ليقترب من خلق لاسان وشائه .. أن يكون حرة
بالانسان نفسه فيعلم أنه من طينة الهائم وسحبه ، إذ كان يقرب من خلقه هذا
القرب ، وإنه لولا قصبة فصل بها في الدهن والعمل ولسبق كان كقص الهائم
على أن في جسم القرد فصولا أخرى تفرق بينه وبين الانسان كالخطم والذنب المسدل
وانشع الخلل للحسم كله . وهذا لم يكن ما دعا القرد أن يلحق بالانسان لو أعطى
مثل دهن الانسان وعقله ونطقه »

ويستقل المؤلف إلى كلام الدميري ، إذ يقول عن القرد إنه « أشبه الانسان في
عالب حالاته . فانه يصحح ويطرب ويعي ويحكى ويتناول انشئ بيده وله أصبع
مقصه إلى أنامل وأصغر ، ويقبل الثلقين والتعليم ويأسس لباس ويمشي على رجليه

حيثما يسير ، ولشعر عبيد الأسفل أهداب ، وليس دلت نشئ من الحيوان سواء
فهو كالإنسان ، ويأخذ نفسه بالزواج والغيرة على الإناث ، وهم خصستان من
مضخر الإنسان ، فإذ أراد به الشبق استمعى بهيه ، وتحمل الأثني أولادها كما تحمل
المرأة .. وفيه من قبول التأديب والتعليم ما لا يخفى ..

ويذكر المؤلف أن أحوال الصفا ، دعوا بوصف هذه المشابهة ما لم يبعده دارون ،
حيث قالوا أن القرد « يقرب شكل جسمه من جسد الإنسان صارت نفسه تحاكي
النفس الإنسانية » ثم يعقب على هذه التشبيهات جميعها ، فيقول أن الإنسان
كما يشابه القرد في أشياء يشابه غيره من الحيوان في غيرها « بل لعل في الحيوانات
لدينا من شبه الإنسان أقساما لا توجد في العليا ، فلا يصح الاعتماد على مجرد
المشابهة وهذا الأسناد لشهير « كوفييه » يقول أن إدراك القرد ليس أرقى من
إدراك الكلب الا قليلا .. وإذا سلمنا أن من لوازم المشابهة التحول ، فكيف يعين
تحول الإنسان عن حيوان نشأ عنه القرد ؟ فعل الإنسان تحول قردا .. وهذا ما
نص عليه الذكر الحكيم .

وبعد مناقشة المؤلف قربة انشبه الظاهر بين الإنسان والقرد ، مضى يناقش
القرائن الأخرى التي يستند إليها الثنوثيون للقول بتحول الأنواع وتحول النوع
الإنساني من بينها ، عن أصله المشترك بينه وبين المقاريات العليا ، فبهج في مناقشته
عن هذه المسح الذي يستند الدليل من أصول الخلد المطلق تارة ومن تحوّل لواقع
تارة أخرى ، وأفادته مطالعته المتفرقة لمراجع المذهب علم يخطئ مواضع الحججة
الواقعية أحيانا ، مع اعتماده اعالم على مسح انتقائهم الخلدية ومن قبيل ذلك أنه
عمد إلى دليل من أقوى أدلة الثنوثيين وهو بقاء الأعضاء الأثرية - كالشذوة
في ذكور الإنسان ، فتساءل « لا أدري لماذا بقي أثر عذر الخنونة ظاهر في
الإنسان ، ولم يبق فيما هو أدون منه في سلم الارتفاع كذوات الحمار » ولم يسأل أن
يستدرك على هذه الاعتراض بما أسنده إلى ما قال الشيخ الرئيس في الشفاء « أن
الفيل يذكر له ثدي كما للإنسان ، وذكر ذوات الحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه
أمهاتها ويترج إليها كما يعرض مرارا في الخليل ..

وجمعة رأى المؤلف أن ما يسمى بالأعضاء الأثرية يدخل في باب

« للشودات » التي تعرض لتركيب بعض الأحياء ، وهي أجنة في بطون أمهاتها ، أو تعرض لها خلال نموها ، وعدد من ذلك ما يولد وله أربع أيد ، أو ما يولد وله جوف واحد ورأس وأربع أقدام ، أو ما يولد وقلبه في غير موضعه ، ثم قال منسثلا : « هل يمكن تعليل هذه الشود المشوعة بحيوانات كدت كذلك في العصور الجيولوجية فانقلت إلى هؤلاء النعساء بناموس « الأنايسيم » ؟ » فمن م يمكن ذلك فلنكن الشود التي فيها بعض الشبه بالحيوانات من هذه القليل »

وميج المؤلف في نقد الانتحاب الجنسي - وهو سبب هام من أسباب التطور - كمنبحة فيما تقدم ، فهو يبدأ بالانتحاب الجنسي في اشات وسأل كيف يقع الانتحاب الجنسي من السات التي لا تتوقف تفقيحها على الحشرات والطيور ؟ وكيف تميز الحشرات ولطيور ما هو جميل وما هو أحمس ؟ ثم يقول « ان العجاوات قبيحة الادراك لما في المصوغات الحميلة من الجمال حتى أن بعضهم حص ذلك أعظم فارق بين الإنسان وبينها ، وكان الأستاذ هكسي ممن يذهب هذا المذهب » .

قال : « ثم هب أن هذه الحيوانات المدحقة عنبرة الهوى والغرام ، وهائلة بالجمال كعروة من خرام ولكنها لا تريد معارلتها بل تطلب رزقها المنقسم لها ، وعد أي نات وجدته لقحته حسنا كان أو قبيحا فلا أدري بم يطل هذا الحس والانتظام في الفواكه والأثمار وما فيها من العظم المحبوس والسكبة الطيبة ونحوها مما لا يوجد إلا بعد التلقيح » .

ثم أنتهى المؤلف على أساس مذهب التحول ، لأنه قائم على اقراض تعدد الأنواع بعد انفرادها أو قتلها ، وليس هذا الاقراض باللازم ضرورة من قياس العقل ولا من نتائج الواقع : « ومن الطريف في هذا الرأي أنه كما يمكن أن يطل به القول بانحداد أصول الأنواع أو قتلها ، كذلك يمكن القول بعكس ذلك والتعليل له أيضا ، فيقال إن أصول الأحياء كانت في بدء الخلق أفرادا متباينة بأقصى ما يكون من التباين وعدم التشابه ، فلم يزل كل حي يخلف نسلا يشبه بناموس الوراثة ويباينه بناموس المباينة لكن بما يقربه إلى فرد آخر ، فلم تزل تلك الدبابات مع الأجداد تريد المشابهات مع سائر الأفراد ، وتنازع البقاء بلاشي الصعيف ، والطبيعة تنتخب القوى حتى صدرت التباينات التي قلنا انها مع غير المشابهات ثابتة » . فتأملت منه

الأنواع الموجودة .. وله شواهد على مذهب هؤلاء ، فالحية مثلا تعد الآن من جنس لدبابات ولا تجتمع معها في الأصل بل أصلها من ذوات الأرجل ، وقل منه في الحيوانات المنحطة لئى يذكرها بخر وغيره ، فإنا الآن نؤلف جنس المنحطات وهي بعيدة في الأصل منها .

قال : « وهذا الاحتمال .. وإن لم أجد أحداً قال به في أصول الأنواع ، ولكنه أحد لقوليين المشهورين في أصل اللغات .. وعند العلماء مذهبان شهيران . الأول أن لغات البشر متشابهة ، وهي كلها من أصل واحد .. وهذا الأصل قد نمرع وتووع فتولت منه لغات البشر المختلفة ، فما اللغات سوى لهجات من لغة واحدة ولكنها بعدت عن الأصل كثيرا وتعبرت بازدياد الانفصال والنحت والحذف حتى بعدت بعضها عن بعض هذا البعد الشاسع ، وتعدر رد بعضها إلى بعض لفقد الحقائق الكثيرة من بينها . والمذهب الثاني أنه كانت للغات البشر أصول مختلفة بحسب عدد طوائفها ، وأنه مع الزمان اقتربت هذه اللغات بعضها من بعض فتأرجحت وتشابهت بتأرجح أهلها وتشبههم الخ . وعند الكاتب أن المذهب الثاني أقرب إلى الصحة وأقدر على حل المشكلات من الأول . »

وتابع المؤلف بحثه في النشوء ، فاستطرد منه إلى البحث في الارتقاء وسأل : « أى معنى لارتقاء ذوات الأربع عن الطيور ، وارتقاء الإنسان عن ذوات الأربع ، مع اشتراك الكل في حصول التغير ؟ » ..

واتهى المؤلف إلى أن المذهب كله ناقص الاسناد ، لانوجد فيه حجة قاطعة غير قرائن الترجيع والتغليب ، ولا غنى له عن المزيد من ابحت والتقيب ، كما قال بعد أكثر من خمسمائة صفحة على هذا المنهج مستندا إلى قول فيرسو العالم الألماني : « انه في بعض طوائف الناس صفات يشاركهم القرد فيها ، كما في بروز الفك وفطس الأنف مما يجعل العلاقة قريبة بين تلك الطوائف والقروء حتى يحتمل ارتفاعها من القرد ، ولكن بين الاحتمال والقطع بونا شاسعا لأن الصفات المشار إليها لا تقوم نوع القرد بين المقوم له خواص أخرى ، وكل قدة من جلده كافية لتغيير نوعه من غيره من الأنواع ، ولا أظن أن واحدا من المشرحين يرتاب في ذلك ، والفرق بين الإنسان والقرد واضح جدا حتى أن كل قطعة من الواحد كافية ليستدل بها على النوع

المقطوعة منه فالأدلة على النشوء العلى قاصرة جدا لا يبنى عليها حكم ، ولا بد من أن يريد ما البحث والتنقيب للوقوف على أدلة أخرى قوية ..

* * *

ويتبين من مراجعة « المكتبة الشوثية » فى الشرق العربى ان الاهتمام بالذهب كان على أشده بين أتباع الكنائس الكاثوليكية والكنائس الانجسية ، لأنها هى الكنائس التى تصدى علماء اللاهوت منها لمناقشة مذهب دارون عند اعلانه فى موطن ظهوره ، وشاركهم فى ذلك علماء الطبيعة المسيحيون عن أنكروا الذهب واستندوا فى انكاره إلى الأدلة المسببة ، ومطالبوا الشوثيين بمزيد من الأدلة القاصمة لإثبات نظرياتهم لأنها نظريات تنقض بعض المقررات الدينية ، ولا يكتفى ن مثل هذه الحجة أن تستند النظرية إلى الترجيح والتعيب أو إلى الظن والتقدير ، وقد يعزى إلى هذا السبب كثرة الدراسات التى تعرضت لمذهب النشوء من الناحية الدينية أو من الناحية العلمية بأقلام فضلاء الكنائس لكاثوليكية والانجيلية من كتاب اللغة العربية ، وبخاصة فى البلاد التى كان اللاهوتيون يشرفون على معاهد التعليم فيها ويأخذون بزمام ثقافتها وآدابها .

ومن نختار هنا من الدراسات الشوثية التى كتب باللغة العربية ، ولا نستقصيها لكثرتها وحرج معطمها عن موضوعه .. ولم نجد بينها ما هو أولى من دراسات الأساندة ابراهيم الحوراني ، والأب جرجس برج صغير المرونى ، والأسقف خير الله امطفان ، والدكتور حليم عطيه سورياى ، ومنهم من كتب عن هذا المذهب قبل خمس وسبعين سنة ، وأحدثهم كتابة عنه من تصدى بدقشته بعد ظهور كتب الدكتور « شبلى شميل » فى موضوعه ، وهى مؤيدة للنشوثيين المبكرين للأديان .

فالأستاذ ابراهيم حوراني - وهو عام لعوى مطلع على المباحث لعميه ألف فى الرد على مذهب دارون رسالة « ماهج الحكماء فى نبي النشوء والارتقاء » ثم اتبعها برسالة « الحق البقى فى الرد على بطل داروين » وطبعها ببيروت (سنة ١٨٨٦) ردا على مناقشة الدكتور « شبلى شميل » لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن لصفت فى المذهب وهو انتقاره إلى الدليل القاطع وتحويله

على الشواهد التي توحي بالرأى ، ولا تستأصل الشكوك أو تسكت المعترض
المطالب بدليل لا يصعقه الاحتمال .

وقد أثر الأستاذ حوراني أن يؤخر رأيه حتى يسوق بين يديه آراء علماء الطبيعة
المحالين لداروين في القول بتحول الإنسان عن غيره من الحيوان ، قال « ان العلماء
لم يشتوا مذهب داروين ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه بحث فيه عشرين
سنة ، ومهم العلامة ونشل مع أنه من أشد الناس ميلا إلى القول بالارتقاء بعمل
الله . ومهم العلامة ولاس قال ما خلاصته أن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا
يصدق على الإنسان ولا بد من القول بخلقه رأسا .. ومهم الأستاذ فرخو قال انه يتبين
له من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان
سلالة قرد أو غيره من البهائم ، ولا يحسن أن نفوه بذلك . ومهم « ميعرت » قال
بعد أن نظري حقائق كثير من الأحياء أن مذهب داروين لا يمكن تأييده وانه رأى
من آراء الصبيان .. ومهم العلامة هون بسكوف ، قال بعد أن درس هو ومروخو
تشرريح المقالة بين الإنسان والقرود أن الفروق بين البشر والقرود أصلي وبعيد جدا ..
ومهم العلامة أعاسير ، قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم
الفيكتورية ما خلاصته ان مذهب داروين خطأ علمي باطل في الواقع ، وأسلوبه
ليس من أساليب العلم بشيء ولا طائل تحته .. ومهم العلامة هكسلي وهو من
اللاأدرية وصديق لداروين ، قال أنه بموجب ما بنا من البيانات لم يتبرهن قط أن
نوعا من الثنات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو بالانتخاب الصناعي ، ومنهم
العلامة تندرل وهو كهكس قال انه لا ريب في أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون
أنه نتيجة معدمات لم يسلم بها .. ومن المحقق عندي أنه لا بد
من تغيير مذهب داروين » ..

وبقسم الأستاذ حوراني أنصار مذهب النشوء إلى ثلاث فرق : معطلة ولاأدرية
والهية . أما المعطلة فهي التي نعمت الخالق سبحانه وقالت يقدم المادة .. وأما
اللاأدرية فهي التي لم تنعصر لشي الخالق ولا لإثباته ، وأما الهية فهي التي اعترفت
بالواجب تعالى ، وقالت بأنه خالق المادة والحياة وانقسمت هذه الفرقة إلى اثنين ،

ظنت إحداهما الإنسان ابن القرد أو صموه ومها داروين ، وقالت الأخرى بأن الله خلق الإنسان من البدء إنساناً ومها العلامة ولاس ، وعماء هذه الفرقة أصحاب المشوّه الإلهي الذي قالت بإمكانه وصرحت بعدم البرهان على وقوعه وبأن عليه اعتراضات لم تدفع دعماً مقنعاً .

ثم أورد الأستاذ حوراني احصاء بعض علماء الحضارات عن الأنواع التي وجدت في باطن الأرض ، فقال ان ثمانية وعشرين في المائة منها أنواع لم تتغير ، وسبعة في المائة أنواع مهاجرة ، وخمسة وستين في المائة لا سبع لها . وأما الأنواع التي نشأت بالتغير أو الأنواع الجديدة ، فلا وجود لها في شيء من بقايا الحضارات .

ويرد الأستاذ حوراني على استدلال النشويين بتشابه الأجنة بين الإنسان وبعض الحيوان ، فيقول ان علة هذا التشابه « بساطة التكوين وقصر النظر » سبيل أن الثنايا بعظم على توالي اقترابها من كمال التكوين ، فلا ينشأ من بيوض الإنسان أو أجنته سوى أناس ، ولا ينشأ من بذرة اللوزة إلا لوزة .

ويحيل النشويين إلى بحث النيرانوبوجيا أي المشوهات - لتفسير الأعضاء الأثرية التي تشت بعد ولادة الجنين ، ومن أمثلتها « الأعنش » أي من له ست أصابع وهو من أبسط الأمثلة ، والأشوه المزدوج كهيدى وجوده وهم الأختان الحماريتان المشهورتان ، كانتا ملتصقتين بالمتنين والأفخاذ والأحشاء ولدتا سنة ١٧٠١ وعاشتا اثنتين وعشرين سنة وكانتا مختلفتي السجيا والأخلاق .

وقال عن الانتحاب الطبيعي إنه لا يمكن « أن يكون أس لارتقاء الدارويني لأن الطبيعة إنما تؤثر في الموجود ، وليس لها أن توحد للمعدوم ، فيمكنها أن تعمى العيوب . وبكيفية لا تستطيع أن توحد البصر » ويقتضي مذهب داروين أن لا تجمع الأنواع الدنيا والعليا بل تتعاقب وتسبق الأول ثانياً أبداً ، ولكن ذلك لا اجتماع ثبت في المنقرضات والأحياء .

وأضعف في ردود الأستاذ حوراني بوله عن قدم لاسان ، إذ يقتضي مذهب داروين أن يكون لاسان قديماً جداً ، ولكنه تبن لأشهر العلماء وكبارهم من النشويين وغيرهم أنه أحدث الأحياء وأنه كان مد بضعة آلاف سنة ، وأثبت العلامة دوسون أنه كان في ثالي العصر الخليدي وهو معروف بالأكثر الحديثة ،

وحصل ديث في حطبة به في الاساس من راس التاريخ .. وقال الدكتور هويدس
نظرت أربع فرق مستقيمة من الحيولوجيين في راس نشوء الانسان فاتفقت على أنه بدأ
منذ ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف سنة .

• • •

وفي إبان استخدام المناقشة بين منكرى لمذهب ومؤيديه ، أصدر لأب حرجس
فرح صغير الماروني مدرّس الفلسفة بالمدرسة اللسانية في قرية شهبان (١٨٩٠) كتاباً
نصح فيه منهج الحوار بين خصمين . سمى أحدهم بالإنسان القردي وسمى الآخر
بالإنسان الآدمي . وأدار المحاجاج بينهما على هذا المثال ، مع اختصار بعض
التفاصيل :

لآدمي - " ليس تجدون أشكال الانتقال من يد قرد إلى رجل . . . أمهل
عز علي ذلك أحد عنكم ، فإن لم يفتروا على شيء من ذلك فالإنسان القردي
لا يكون له وجود .

القردي - " إن الباحث الباثولوجية « البشرية » وحق يقال لم تأت بما
يعرب عن تسلسل بين الإنسان والقرد أو أحد أنواع الحيوانات . على أن أسانذت
قد أجمعوا على أنه من المحتمل أن من الحيوانات التي على شكل حصان البحر ما
يتحول إلى حيوان قوامه على شكل قوائم لخيرير ، وإن منها ما قد يتحول إلى الماعز
ومنها إلى الخراف . . الخ

الآدمي - فإن كان ذلك من طوّل المحتمل لا من أمارات اليقين ، فإن
العلم الحقيقي الذي تعولون عليه ؟

القردي - نعم إن لم نجد إلى الآن أثراً إلى لاسان انقردي ، غير أن
اسم لم به قصاه

الآدمي - ولكن ماذا يكون هذا العلم الذي يقضي بخلاف الواقع . فإنا نرى
الأنواع لا تتغير عن ذاتها وإن كثرت فيها الأنسل ، فاذا قلت لا فارق بين النوع
ولسل أسكتك العلم الباثولوجية ونحن نحصره في أمر وهو النتائج

نقردى ومن يمكنه أن يرسم نجوم النوع والعلماء لا يكادون يتفقون على شيء منه ؟..

الآدمى - أو يكون الجهل في أصل شيء أو في علته حجة في إنكار وجوده ، أفضقه ما للعلماء الجوية والأرضية من الأسباب والعلاقات ونحن مع ذلك لا نذكر وجودها .. إنا نعلم أن المولود من قرن الفرس والحمار لا يكون إلا عاقرا ، فنقول . لا بد من برق نوعي في مولده ، .. أجهلنا في رسم حدوده نمك من بكر وجوده نفردى . . إلا أننا نعرف من أصحابكم من يقول بامكانية مذهب التحول .

لآدمى - لا نجهل أن البعض من أصحاب الإيمان يحبون أن يوصفوا بين التحول والإيمان ، فيقولون إن الله سبحانه قد حل آدم من تراب قد عركه كثير من المولدين من الحماز ياز إلى آخر حيوان ذي أربع قوائم ، فأخذ الله هذا الحيوان الأخير من السلسلة المتحولة وهو القرد ووضعه فيه النفس البشرية ، وعليه فيكون آدم نتاج عمل محول وحائق معا . وأين بك في غير معاوضه كيف يعمر هؤلاء في الصلال . ومن العجيب كيف لا يفقهون أن هذا المذهب إنما تنفيه لفلسفة نفسها كما سبق بيانه ..

نقردى أو هل تنفيه الفلسفة لو افترضنا تدخل الله عند انتقال كل من الأنواع كما تدخل عند خلق الإنسان ؟

الآدمى - إذا افترضنا تدخل الله سبحانه كان لا بد من تعويض نفس بنفس أم هذا التعويض هبتم إما بوجود القرد الأول الذي تكون أو في بداية الانتشار ، وكلا الافتراضين لا يتحقق أما الأول فلأنه يفترض قتل الحي ثم إقامته أو ملاشاته ثم إقامة آخر يده

نقردى - قرأت في كتب بعض أصحاب مذهب التحول أن التمييز إنما ينتج من عمل صدفة يدور عليها الانتخاب الطبيعي ، في قولك فيه ؟ .

الآدمى قد سبقهم إلى مثل هذا القول غيرهم من الملحدين الذين يؤيدون المادة . . ونحن نوقفك على أدلة تذكر ما يقولون عليه من فعل الصدفة في تمييز الكائنات .

إن الصدفة لا تفع ، لا في الأشياء التي يمكن لها أن تكون على خلاف ما هي
 فقد يمكن للصولة التي بصورها الجار أن تكون مربعة أو مدورة ، أما الأشياء التي
 هي من الضرورة ، ودائما ، فلا يمكن لها أن تحدث بطريق الاتفاق ولكن من
 الأشياء ما لا يمكن له أن يكون على خلاف ما هو ، مثل الحواهر البسيطة وذوات
 الأشياء وحقاتها ومثل الأعمال التي تصدر عن فاعل لا يصادمه في فعله شيء
 كإخادسه مع قطع ليطر عن كل مانع يصادمها في فعلها ، وعمله فان هذه الأشياء لا
 تقع عليها الصدفة . أتظن إن للصدفة أن تجعل الكلب حمارا والحمار كلب
 ونحن نشاهد أن الحركات والأفعال إلى نلى تمايز لأشياء ولا نسبها . أو لا
 ترى أن السفينة لا تتحرك ولا تجرى قبل أن يجعل كل من آلتها في موضعه على هيئة
 من التقدير لا يسمى أن يشوبه أدنى خلل ،

* * *

ويقصى هذا الحوار إلى عجز « الإنسان الفردى » عن لحواب فيتبعه صاحب
 الكتاب بمناقشة مطولة لمذاهب الماديين يستند فيها إلى حجج الفلسفة اللاهوتية ،
 ويررر فيها أن العلوم الطبيعية وحدها لا تكفى لتحقيق النظر في أصل الوجود من
 حيث هو موجود ، وهذا سمي بالبحث عن أصل الوجود مما بعد الطبيعة لأنه « ينسعى
 أن يقرأ هذا العلم بعد الوقوف على عيم الطبيعيات ، وإيراد به عيم يبحث عن الوجود
 من حيث هو موجود ، أى عن ذات الأشياء بقطع النظر عن معيائتها وأحوالها
 الخاصة التي يحار بها الشيء عما سواه ، أو عيم يبحث به عن الأسباب الأخيرة
 للوجود والمعرفة ، فان كليهما لا يفصلان ، لأن مبادئ المعرفة والعلم العالية المطلقة
 إنما هي التي نمكنا من الوقوف على أسباب الوجود . وبذلك هذه يكون علم العلوم »

* * *

ولا نعلم أن كتب في هذا الموضوع نعلم باحث مسيحي من كتاب اللغة العربية
 طهر قبل كتب « صهوة علم اليقين في حقيقة مذهب داروين » مؤلفه الأسقف حير
 الله اسطغان باظر مدرسة عين ورقة الذي ألفه بعد الكتاب لسبق ما ذكر من ثلاثين
 سنة (١٩٢٩) أعيد في حلالها طبع مؤلفات الدكتور شبيب شميل في هذا المذهب ،

ونشط البحث بين الأوربيين في نظريات الشسوء عامة على أثر البحوث المنتصرة في نظريات تنازع البقاء وإرادة لقوة وما إليها من « فلسفات » التي أثارها الحرب العالمية الأولى ومشاكل العلم والاجتماع فيما بين الحربين العالميتين . وقد أشار لأسقف إلى لأطور التي مرت بمذهب دارون منذ إعلانه في تلك السنة ، فنقل كلاما عن العام لألماني إدوارد هوب هارتمان قال فيه إنه « في سنة ١٨٦٠ كانت مقاومة الأعداد من العلماء الشيوخ بنظرية داروين شديدة » . وفي سنة السبعين أحدث هذه النظرية تنتشر في كل صقع تقريبا . وفي سنة الثمانين كتب هود المذهب الدارويني عاما ومصفا حتى كاد يلع بسموه سميت الرأس ، وفي سنة التسعين بدأت بعض الشكوك تعتل وبعض المقاومات تظهر ، وعلامة التصدع والانهدام تبيس واتصحت ، وفي العقد الأول من الخيل العشرين بدأت أيام المذهب أن تكون معدومة ، وكان بين مصاديه رد حصى حججه من أعلام العلماء أمهر ، وعوستاف وولف ، ردي فريز Vrise ومون راشتين Wallstein وفليشمان Fischmann وريك Rienk وغيرهم كثيرون .

وبعد هذا التمهيد عرض الأسقف للبحث من الناحية اللاهوتية فقال : « أن البحث العلمي عندما يأتي بنتائج واقعية أكيدة تجتمع ساعتئذ كلمة العلم المسيحي وغير المسيحي عيه على غير تصاد ولا باف ، وهذا هو عين الصوب والرشد لأن الحق لا يغير حق ، ولا يتسهم لاهوتيو الكنيسة الكاثوليكية كما أنهم لا يسلمون لأخصائهم الفائلين بالمذهب الدارويني اخص ، وهذا بعض الواجب عليهم بالنظر إلى ما يناقض حقائق الوحي المقدس ، غير أنهم متى رأوا من بعض الوجوه اتفاقا بين اللاهوت ونظرية شسوء كانوا من هذا انقيس إلى الجانب بضاء هيين من هؤلاء العلماء الالهوية المتشددين لأب واسمان الحرمي لشهير بعلم طبائع الحشرات المبال إلى لاعتماد نظرية شسوء الأنواع المعتدلة ، انقائل بأن أنواعا كثيرة من السات والحيوان نشأت من أنواع صيغية أصيلة أبدعها رب لطبيعة الخلاق ، كالآراب الألبقة والرية والحمار و لفرس والكلب وثلث الح فإذلك هذا ترى أن مبدأ الحق والإبداع يث غير محسوس التة ، فإذا حل تصور اشتقاق الأنواع الجديد بالتحدس والتسلسل محل التصور القديم لثبات الأنوع على عدم التغير كانت حكمة

الدرى في الحديد أحمد منها بالقديم ، من رجه أنه عر بوانه وجل جلاله وضع في الطبيعة الآلية قوى تؤهلها لتحدير وبشر صور جديدة لموجودات حية بدون افتقار إلى توسط أو تدخل قدرة الله المتدعة لتكون وبواحيه والعبسية محفظها وإدارتها وحيا تتصدم نظرية ما مع التعيم المسيحي تصدما واضحا عبر قلب للشك يجب وقتل رفض هاتيك النظرية وطرحها مطلقا ، وبناء على هذا ، كل من قل عبدا نشوئى يسى به الخنقة قطع بدون رحمة يجب أن نصرب بقوله ومبدئه عرص الحائط ، وكل نظرية تكرر حلقة العالم بستة أيام يراد بها ستة أدوار أو ست مدد يجب أن تطرح ، وكل قون بأدوار طويلة مرت وانقصت بين تكوين الأرض وخلق الإنسان هو قون معقول هذا هو مقبول لأنه ليس في الكتاب الكريم ما يذم أو ينقصه أما باسطر إلى أصل الاسان ، فالكاثوليك مبدون بصر سمر التكوين ، ويمكنهم التوسع بتفسير كلمة الكتاب من جهة الحسد فقد ارتأى بعضهم أن المقصود بقوله جلله من تراب الأرض أنه قضى ورسم الصورة وهيا الهيئة وبس كما يجب لبحورى الحرة والإبريق ، وأما من جهة النفس فالتعليم الكاثوليكي وانفسفة المصادقة الرصينة يزمننا أن نقف عند الاعتقاد الراهن ثابت بأن أنفسنا روحية محنة وبنا تفرق وتمتاز جوهريا عن نفس الحيوان .

وتلى هذه المقدمة براهين الأسقف اتى بى عليها رفض تحول الاسان عن غيره من الحيوان ، وهى تلخص في المطاسة بالخلقة المفقودة ، وهى « لم ير لها أثر أو عين بين الأحياء ولا بين الأموات ، لا في الأحافير ولا في المتحجرات »

ثم سأل الأسقف « إذا ثبت مذهب النشوء هل يناقض الدين ؟ » فكان جوابه « لا يجب مع لعلماء النزيهين محذرين من الأغراض والأهواء بالنسبة ، وبه لا يصاد مقاصد الخالق وعماياته » واستشهد سحت للدكتور مكوشى بقول فيه « إن النشوء بجميع مداه لا يسى مقاصد وغايات الدرء عر وجل ، فلاستد هكسلى الشروى الكبير والمدى المعروف بين الناس الساء سئم يكون النشوء لا يرم منه بى مقصد الله ، وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملها معا لا تمام مقصد جيد أو اكمال عية حسنة كالحياة لبنت وطيب العيش للانسان والحيوان هو

دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصد الله فالذى يصنع آلة تعمل هي آلة مشي ، هو أحق وأقدر وأحكم من الذى يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود بها ولا تتعداه .

* * *

وفي سنة (١٩٣٧) ألف الدكتور حليم عطية سورريال الطيب الأول لسجى 'سبوط كتاب' « تصديق مذهب دارون والإثبات العسى لعقيدة الخلق » به فيه إلى خطأ يسبق إلى بعض الأذهان ، وهو اعتقادهم أن انكار مذهب الشبه مقصور على رجال الدين ، فإن من كبار العلماء الطبيعيين من يرفضه كالاستاد فيالتون Vialleton عميد كلية الطب بجامعة موبليه وأستاذ علم الأجنة فيها ، والاستاد كاترواح مدير متحف التاريخ الطبيعى بباريس وهو القائل « إننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية . إننا نعلم فقط أنها غير قابلة للتحويل وإننا على يقين بأن دارون ولا مارك لم يكتشف الناموس الحقيقى بطريقة تكويها » .

ثم سرد الدكتور سورريال أسماء بعض الأساطين من علماء الطبيعة المعارضين لمذهب التحول ، وحلاصة رأيهم في الاختلاف بين الأنواع « أن جميع تلك العوامل لا يمكنها أن تعبر بوعا من الأنواع الحية إلى نوع آخر وكل التغيرات التى يمكنها أن تحدثها سطحية لا تمس التركيب الجوهرى للحيوان أو السات وبعضها بالولوجية -مرصية- تقود إلى انقراض نوع ، ولقد قل العالم الايطالى رورا أن الاحتمار الاصطناعى الذى حربه بو الإنسان في خلال الستين سنة الماضية دليل عظيم ضد نظرية دارون ... » .

ويقرر الدكتور أن حلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء ، وليس المناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب ، فلا توجد حلقات بين الحيوانات لأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذات الخلايا المتعددة ، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليات ، ولا بين الحيوانات اللاقضية والفقرية ، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية ، ولا بين الأحيرة والزحافات والطيور ، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية ، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في لعصور الجيولوجية ... »

ثم قال بعد الاستشهاد بكثير من امثال هذه الملاحظات العلمية : « إن هناك مسألة منطقية بسيطة وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعثره التحوليون الحلقة المفقودة بين الفرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات والصدورية التي تحيط به . وإن أصحاب نظرية النشوء يقولون إن هذا المخلوق كان أضعف عقلا من الإنسان الحالي فكيف يمكن لمخلوق ضعيف الجسم وضعيف العقل أن يعيش وحوله الأسد والذئب والفرد وغيرها من الحيوانات المفترسة ؟ » .

ويعتبر نقاد مذهب دارون أن مشكلة الحلقة المفقودة بين الأنواع كما شرحها الدكتور سوربال - هي مشكلة انشاكل في تمحيص هذا المذهب إلى اليوم ، وأنها لا تزال على قوتها واقعا بعد مائة سنة على ظهور كتاب أصل الأنواع واستئناف التعقيب عليه بين حصوم المذهب وأنصاره الذين استجمعوا غاية ما استطاعوا لحل هذه المشكلة عند الاحتفال بالذكرى مرور القرن على ظهور ذلك الكتاب .

* * *

ومحى يكتفى بالردود المقدمة لأنها تمثل مباحي لتفكير عند رجال الدين في مناقشة مذهب النشوء ، وهي :

١ - منحي الحزم بالرفض بطلان المذهب في جمسته وتقصيله لأنه مناقض للدين غير مستند إلى أدلة قاطعة

٢ - منحي الرفض لنقص الأدلة مع تعليق التبيحة بانتظار الأدلة النعمة والإيمان بأنه إذا ثبت لا يقتضي بتكذيب العقيدة الدينية ، والعقبة ، في الخلق ..

٣ - منحي القول بأن الأدلة العلمية التي يوردها العلماء لصيه والتشكيك فيه أرحح من الأدلة العلمية التي يوردها عن تأييده ..

* * *

أما أنصار مذهب النشوء في الشرق العربي فقد كان شهرهم وأصحابهم يباين الدكتور شبلي شميل ، وقد كاد أن يسبق دارون وأصحابه إلى الأحاد بالنظريات

الشيئية على علاقاتها ، وقد سبق الماديين الغربيين إلى نفي كل صفة روحية ، أو غيبية في الإنسان ، إذ قال في مقدمة ترجمته لشرح بحر على مذهب دارون : إن الإنسان على رأى هذا المذهب طبعى هو وكل ما فيه مكتسب من الطبيعة . وهذه الحقيقة لم يبق سبيل لتدريج فيها اليوم ، ولو أُصر على انكارها من لا يرى معقول التعامل القدعة راسخ في ذهنه رسوم النقش في الحجر . فالإنسان يتصل اتصالاً شديداً بعدم الحس والشهادة ، وليس في تركيبه شيء من المود والقوى يدل على انتمائه بعالم الروح والغيب ، فإن جميع العناصر المؤلف منها موحدة في الطبيعة وجميع القوى التي فيه تعمل على حكم قوى الطبيعة .. فهو كالحَيوان غريزياً ، وكالإنسان كيمياً ، والفرق بينه وبينها فقط بالكيفية والصورة لا بالماهية والعرص لا الجوهر . فالإنسان يحس ، والحَيوان يحس ، والإنسان يدرك ، والحَيوان يدرك ، وبواميس انتصدية واحدة فيها . غير أن الإنسان يدرك أكثر من الحَيوان لأنه أكمُن تركيباً من الحَيوان ..

ركاب ردود الدكتور شيلي شميل على مناقشته تكررنا لردود دارون وبحر وغيرهما من الفائلين تتحول الأنواع ، وفحواها .

١ - إن الثابتات بين الأنواع لا تزيد على ثوابت بين أفراد النوع الواحد إلا بوراثة . وهذه أراثات لا يحكم عليه بالفترة المعلومة من تاريخ الإنسان لأنها ثبتت بعد نقصاء مئات الملايين من السنين ..

٢ - وإن أنصاف الأنواع من شأنها أن تعيش وتنقل موارثها إلى رسل طويل ، لأن لتوريث مرتبط تمام الجهاز المعير لسرع وهو لا يتم في أنصاف الأنواع ، ولكن قد يدل عليه التناسل بين بعض الحيوانات كالخيل والحمير أو الكلاب والذئاب ، وقد يدل عليه « اكتشاف الطير العجيب الأركوينركوس الذى وصل بين طائفتين من الحَيوان منفصل بعضهما عن بعض فصلاً تاماً وهما الطيور والحشرات » .

٣ - إن العلماء يحفظون في وضع حدود الأنواع ، وقد ذكر دارون « أن ثبات الإنجليزية وستى يذكر ١٨٢ نباتاً إنجليزياً عدها غيره أنواعاً مع أنها ثوابت ، وقد

قد هوكر في هذا المعنى ما نصه إن البابيين يعدون الآن من ٨٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠
نوع من النبات ، فالنوع إذن غير محدود ...

٤ - إن التحولات لا ينبغي أن يبحث عنها في الأنواع الحاضرة ، لأن كلا
مهما تطور عن أنواع سابقة له في سلسلة هي التي كان يمكن أن يجرى بها التحول في
وأنه ، ولكن الأنواع الحاضرة تباعدت عن أصولها فابتعدت الأشبه المتحولة فيما
بينها

ولا نسي - عند تقدير عوامل انعقاد بين الطرفين - أن الدكتور شبل شبل
إنما يواجه هذه الخصومة اللغوية سلطان رجال الدين ، فاسبق من هذه الخصومة
إلى خصومة الأديان ، ورأي كما قال في مقالة الترجمة أن الملل والديانات أصنافها
واحد ، وقيمها في الدين إنما هو لعالمين - حب الرئاسة في رؤساء ، وارتياح
المرءوس إلى حب المقام ، وكلاهما في الإنسان من جهة الذات . فسطا ذهابة
الناس على سادحي لعقول منهم ، فساد البعض وسيد على لبعض الآخر ، وتم
بذلك مرضى العريقتين .

وحاطب رؤساء الدين قبل ختام المقدمة قائلا « سوف يتولى ما بقى ، وربما
كان حظكم من ذلك في الشرق أطول جدا لولا أن انقلب ناسط فوقه يديه . ولا
تعلوا النفس في التاريخ من سقوط بعض الأمم . ألفت إليكم مبادئ أحكامها
وسمعتكم رمام أمورها ، فإنه وإن حصل ذلك - إلا أنكم من تسعوا
أمانيتكم لتوفر معدات التقدم في العلوم والصنائع وانتشار ذلك بواسطة الطباعة » .

* * *

ومع ، ههنا شذرات من التعليقات الدينية والعلمية التي قوبل بها مذهب
التطور في العرب وفي بلاد الشرق العربي . بحسب أن أتت فيها على كل رأي من
آراء الباحثين الدينيين والعلميين في هذا المذهب ، وأن الكتب التي اختبرناها
بلافتباس مما تمثل جواب التفكير جميعا في هذا الموضوع

وقد مضى أكثر من سبعين سنة على ظهور أقدم الكتب التي ذكرناها في هذه
العجبة ، ومضى نحو ثلاثين سنة على أحدثها فإذا أردنا أن نعود إليها بحكم

عليها حكم الزمن المخصص للآراء ، فاسدى مراه اليوم أن الدينيين قد وقفوا موقف المتظر منهم في معارضة استثنائيين ناديين ، فليس من المنتظر أن تقابل انكار الدين بغير الانكار من أهل الدين وقد أصاب العلامة الشيخ محمد رضا حين قال ،
يدفع اشبهات عن العقيدة الإلهية في كل ملة ، ولا يقصر دفاعه على عقيدة الإسلام

* * *

ولكن الكتب التي تناولوا هذا الموضوع من الوجهة الدينية قد أخطأوا -
دينيا وعلميا - في انكارهم باسم الدين أمورا لا تزال قيد البحث بين الإثبات والنفي ، ويجوز أن تسفر بحوث العدد عن إثباتها عما يقطع الشك فيها . كما يجوز أن ينهيها بما يزيل مواضع الخلاف فيما بين عقائد الدين وحقائق العلوم وقد كان بعضهم عدوه بقلة الدعوات الصحيحة التي وصلت إليهم عن مذهب درون ومذهب لتطور على العموم ، وكان لبعضهم عذر مثل هذا العذر قد يسوع اندفاعهم إلى درء الخطر عن العقائد الإلهية يوم تعجل ثائرة التقيد ، فهاجموا على المذهب على غير علم به كعادتهم في الهجوم على كل جديد مستغرب ، وانتحوه للثرثرة بأحاديث الاتحاد والبروق فكان تعجلهم هذا دعيا إلى مقابلتهم بتعجل مثله من الدينيين

يبدأ به - ولا ريب تعجل وحجم العاقبة ، قد ظهرت عواقبه الوحيمة مرة بعد مرة منذ ابتداء العلم الحديث في نشر كشوفا متوالية ، ووحب الانعاط بعواقب التصدي للمباحث العلمية وهي في معرض التحقيق بين الاثبات والنفي أو التعليل والاستضعاف ، وقد علم رجال الدين في العرب ماذا كان من أثر تحريمهم لنقول بدوران الأرض حول الشمس ، ولما بهم تعليم النشء أن الشمس تدور حول الأرض كأن وجود الخلق جل وعلا مرتبط بدوران هذه أو تلك ، وكل في هك يسبحون ..

لقد كان في ذلك التعجل من رجال الدين عضة لهم نهم أن يعيدوا مثل هذه العلة في التصدي للمذهب العلمية التي لم ينقطع الشك في ثبوتها أو بطلانها ، وقد ينقطع الشك عما يثبت على مكرها أنهم كانوا محطتين في فهم الدين والعلم

على السواء .. فان زلزال المادية الذي اضطرب له العرب اضطرابه العنيف لم يكن له حجة على العقائد الالهية أقوى من هذه الحجة على الذين ، كما تصورهم المتعصبون من « المؤمنين » على غير يقين ..

* * *

وبشبه هذا الخطأ المكر خطاً آخر لم ينفرد به الدينيون ، بل شاركهم فيه رمة من العلماء لم يحسوا التغيير بين قصايا العلم وقضايا الحقوق « المادية » أو الحداثية في المحاكم ودواوين التشريع . فصاحب الدعوى في المحكمة أو السيدان مطالب بالثبات دعواه لأنها مصلحته الخاصة ، وبها . إذا لم تثبت - اصرار بمصالح الآخرين . ولكن الدعوى لعلمه ليست كذلك ، ولا يصح أن يناط أمر ثباتها عن يدعيها وحده ، وهي مصلحة الناس أجمعين ، ومن يكرها بغير حق يضر بالناس أجمعين .

وقد أمرط النقاد جدا في التثني بمسألة الأنواع الوسطى ، ولم يصطحروا الأداة ليدركوا ما في هذه الحجة من الصعف والعت وتعلموا ان التثني بها إلى هذا الحد إحراج للمحصن من قبيل إحراج الخصوم المتداعين على دعاوى المحاكم والدواوين

فكيف يحظر على نال لما قد انحصر أب الأنواع الوسطى تبقى لها درية ، مع العلم بأن الوراثة لا تتم قبل متكمال خصائص النوع ؟ وكيف يفوتهم أن يلمحوا هذه الحقيقة ويرتبوا عليها ما ينبغي أن يترتب عنها من اثرات والانتظار ، وهم يرون اليوم أمثلة بارزة من توقف السلسل بين الخيل والحمار أو بين الدواب والكلاب ؟ وإذا كان القاتل «لشوء» يعجز عن إقامة الدليل على تناسل النوع المتوسط ، فكيف يحال هذا العجز إليه ولا يحال إلى الواقع الذي لا حيلة له فيه ؟ . إن كثيرا من الأحياء الدقيقة إلى اليوم لم يبق منها أثر يدل على وجودها في عصور الحفائر المظلمة بين طبقات الأرض ، فإذا جار هذا في أمر الأنواع التي بقيت ولا شك في نقاتها إلى اليوم فكيف نستكثره على اصناف الأنواع التي لم تستكمل خصائص السلسل والتوريث ؟ ليس من الرأي السلم - دينا ولا علما - أن يرتبط رفض الشؤء بعجز الشؤئين عن انقاء أنواع وسطى من احيوان غير قابلة بطبيعتها لسقاء والتوريث .

وقد يحدث عدا أن يوجد الدليل الممكن على النوع المتوسط ، أو يوجد الوسيلة
الممكنة للتفصيل بين الأنواع المتقاربة ، فتعود إلينا قصة دوران الأرض ، ودوران
الشمس يحظر على الدين والعلم لا داعية له غير لتعجل والعت في الخصومة العكسية،
وإنه لعنت لعنت محب يحور في حصومات المال ولكنه يحرم أشد الحرمان في حصومات
الأفكار والآراء .

* * *

وفي كتاب تدور موضوعاته على حكم القرآن الكريم في شأن الإنسان يعيب هنا
أن سأل هل يعيب الدين يحرمون باسم الإسلام مذهب لتبشؤيين المؤمنين
بالخلاق ؟ ..

ويس يفتخنا كثير من الشك ولا قبيل في حلر كتاب الإسلام مما يوجب القول
بتحريم هذا المذهب . فقد يشت عدا أن المذهب صحيح كله أو باطل كله ، أو
يشت أن بعضه صحيح وبعضه باطل ، ولكن كتاب الإسلام لا يصد عن سبيل
العلم في أية وجهة من هذه الوجهات ، كما سنسنيه في موضعه من الفصل الأخير

الدِّينَ وَمَذْهَبَ دَارُونُ

نعود فنقرر في هذا الفصل ما حتمنا به الفصل السابق ، فهو ان مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ، ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو انكار الخالق أو لقول نحو الكون من دلائل القصد والتدبير .

وقد سبب القول بنشأة الأنواع من أثر الانتحاب الطبيعي والانتخاب الحسي إلى عالمين كبيرين من علماء القرن التاسع عشر . هما شارلز دارون والفريد رسل ولاس ، ولم يكن أحد منهما مكرا لوجود الله .

فأوها - شارلز دارون كان يقول به يستريح إلى الإيمان بوجود الإله في هذا الكون الكبير ، ولكنه يرى أن شعوره هذا لا يزم أحدا أن يشعر به مثله ولا يبلغ من شأنه أن يكون حجة عنمية تقنع المنكرين .

كتب في سنة (١٨٩٧) إلى الأستاذ هرديس صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله . « إنني في أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معنى المبدأ إنكار وجود الله وأرى على العموم وخاصة مع تقدم السن أنني أحرى أن أسمى (لا أدريا) وأن هذا الاسم أقرب إلى تصويب في وصف تفكيرى ... »

وقال في خطاب كتبه إلى طالب هولندي (في الثالث من أبريل سنة ١٨٧٣) . « . . يبدو لي أن استحالة القول بأن هذا الكون المحض العظيم ، وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ، إنما كان وليد صدفة هو أكثر سند للقول بوجود الله . ولكنه سند لا أستطيع أن أقرر قوة اقتداعه كما لا أستطيع أن أعصى عن المشككة التي تنجم مما يتحصل هذا العالم من الآلام . »

وكتب إليه طالب ألماني في سنة ١٨٧٩ يسأل عن عقيدته الدينية ، وعن العقيدة

التي يدعو إليها الأحاد مذهب لتطور ، فكيف أحد دونه أن يحبه ويحب غيره من
بوجهون إليه هذه الأسئلة قائلا

« ب. مستر دارون يعتقد لكثرة الرسائل التي ترد إليه ولا يتيسر له الرد عليها
جميعها ، ويود أن يقول إن مذهب التطور موافق كل مواهبة إيمان المؤمن بالله .
غير أنها يجب أن تذكر أن الناس يختلفون كثيرا في تعريفهم لما يعنيه بالآله ،

ويفهم من خلاصة رأيه في سيره في كتبها فلمه ، أنه لا يفرق بين كتب العهد
لقديم وكتب الديانة الهندية من حيث سببها إلى الوحي الإلهي ، وأنه لم يسم بديه
أدليل على حدوث هذا الوحي في التاريخ ، ولكنه إذ أراد أن ينظر إلى المسألة
الإلهية من جانب الانتحاب الطبيعي فإن أنواع الأحياء كانت حبيطة أن تصرع عن
تجديد وجوده واستمرار نسها لو كانت شرور الحياة أكبر من حسناتها ، وهي
الحجة التي يستند إليها الملحدون في بكرهم للمقاصد الإلهية .

وكان دارون على تردده في مسائل الغيب ، يشعر بقدااسة تدين ويحرص على
رعاية شعور المتدينين ولا يرضى من البعض أن يفحموا مذهبهم على صفائر الناس فيما
اطمأنوا به من عقائدهم الروحية ، مما أراد كدول ماركس أن يبدى إليه كتابه عن
رأس المال كتب إليه متعذرا ، وقال من رسالة محفوظة الآن بمعهد ماركس وانجلز في
موسكو « إنني أشكر بك رسالتك لودية . وأفضل أن يكون هذا الجزء من
الكتاب غير مهدي إلى مع شكرى لهذه التحية . إذ كان أهدؤه إلى بتصصص على
وجه من الوحيه اقروى ما في سائر الكتب الذي لا عم لي به . وإني - مع عيرتي
على لدعوة إلى حرية الفكر في جميع المسائل - أرى ، صوابا أو خطأ ، أن
المناقشات المباشرة التي ساقص المسيحية ولإيمان بوجود الله قبلها يكون لها أثر على
جمهرة الناس ، وإن خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تنعا لتقدم
العلوم ، ولهذا أرى أنجب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابي على الحديث
العلمي » .

وعاش دارون بقية حياته على هذا الرأي ، مؤمنا بأن مذهبه لا يقتضي من لعمل
أن يبي وجود الله ، ولا أن نمس عقائد المؤمنين بوجوده ، وأن الإيمان بأية ديانة

من المبادئ لا يتوقف على الفصل في قصبه تصور إلى الرخص أو إلى القول
أما « الفريد رسل ولامس » شريك دارون في القول بتعدد الأنواع من أثر
لائتحد الطبيعي وعوامل البية الطبيعية ، فقد كان مؤمنا قوى الإيمان بوجود الإله
، وكنت مراقبه لعوامل لطبيعة سب لنصديقه بالمتحركات وحوارق العادات ،
لأنه كان يستخلص من فعل هذه العوامل في الطبيعة أنها لا تحرى على هذا المحرى
لرأى بحكم العقل أو بحكم التفكير منطقى ، وإياها كان يحور أن تحرى على غيرها هذا
أو على محرى آخر يساويه ويمثله في حكم لعقل والأقيسة المنطقية ، رأى ما هي
الإرادة الإلهية التي أوجبت هذا النظام نتيجة لتلك العوامل ، فليست المعجزة التي
يريدها الله أعرب من نظام العوامل المطردة في طواهر الكون ، ومرجعها جميعا إلى
الإرادة الإلهية على أطراد أو على استثناء .

* * *

ومن عقيدة صحابي المذهب في مسائل العيب ، فهم أن العلماء والمفكرين في
العرب ينقسمون هذا لانقسام وأن نقول بأن عائلة من العلماء أو فيسوفها من
الفلاسفة يقبل مذهب التطور على تعدد معانيه لا يدلنا على رأى محمود يراه في الدين
المسيحي أو في الدين عامة ، لأنه يحور أن يكون من المؤمنين كما يحور أن يكون من
المكبرين أو لمتردد بين ، حسب منهج الذى يهجه في تفكيره وأساليب استدلاله

ومن المفكرين ولعلماء من كان يجعل التطور أساسا لعقيدته الروحية أو الفكرية ،
وشسهر هؤلاء بين فلاسفة لقرن العشرين « برجمون » الفرنسي و « هوبيت »
الانجيزى ، وهو عدا اشتغله العميق بالبحوث لرياضية والفلسفية رجل من رجال
الدين وعالم من علماء اللاهوت .

ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على انعدام ، ويعتبرون
العدم دليلا على وجود الخالق ، ومنهم أعضاء في مجمع العلوم الملكى كالأستاذ
« جلادستون » الذى يقول « كثير من نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون
أن هناك وحدة في العدم ووحدة في العاية ، تدلنا من خلال سطر إلى خلائق لله
ونحن ندرك بأن مذهب دارون عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهي أو

فكرة لنظام المقصود بل يؤكد هذه الفكرة ويجهد لنا سبيل النظر في الوسائل التي
احتار بها العبدية لإلهية لتدبير مقاصدها منذ تقدم ، يرى أنها نتيجة قانون منتظم
وبيست مجرد سلسلة من المعاحات المتفرقة » .

• • •

أما المنكرون من علماء الطبيعة ، فحجتهم في الإنكار أن العقيدة الدينية تقوم
على الخوارق والمعجزات ، وأنه لا سبيل إلى التوفيق بين عقيدة تقوم على حرق
قوانين لطبيعة وبين علم يقوم على تفسير الكائنات بما تقتضيه هذه القوانين
رأى أشهر القائلين بهذا الرأي بين علماء الطبيعة « أرسط هكل » الألماني
« توماس هكسلي » الإنجليزي ، وهو أقرب إلى الاعتدال في الإنكار من زميله

لهيكل يقول : « إن العقيدة الدينية تعني دائما تصديق معجزة خارقة ، وهي
هذه المثابة قائمة على مناقضة بنقطع الرجاء في لتوفيق بينها وبين عقيدة العقل لطبيعية،
وهي - على خلاف سائر العقول - تذهب إلى عرض العوامل فوق الطبيعة ،
وبحق من أجل ذلك لم يشأ أن يسميها حرافة أو غير طبيعية - وإن ذلك
الوحي المدعى الذي تأسست عليه عقائد المسيحية ليس مما يتفق مع أثبت النتائج
التي وصل إليها العلم الحديث .. »

وهكسلي يقول « إنا أمام الأمور التي لا شك في بعدها عن الاحتمال - لا
يقول إن محققين في طلب البرهان المقنع لتصديق وقوع لمعجزة الخارقة بل يقول إن
الواجب الأدبي يتقاصدا أن نجد هذا البرهان قبل أن نأخذ تلك المعجزة كخارقة مأخذ
الحد والاعتبار ، ولكننا إذا كنا بدلا من الوصول إلى ذلك البرهان المقنع
لا نرى أمما إلا حكايات مجمل كيف بدأت ومتى بدأت بين أناس يستطيعون أن
يصنفوا كل التصديق أن الشياطين تتلصق بأجسام الخنازير ، فإني أصرح بأن
شعوري إنما هو شعور الدهشة من أن أرى الإنسان العاقل ينظر إلى شهادة هؤلاء
طرفة جديفة »

• • •

وعلى مثل هذا المحور يدور الخلاف بين لفريقين الدين يتفقان في قبول مذهب التطور ، ولكنها لا يتفقان في الحكم على دلالته من الوجهة الدينية ، ولكن هذا الاختلاف لا يرجع إلى المذهب في ذاته وإنما يرجع إلى طريقة النظر إليه وطريقة التفكير التي تعودها ذهن العالم أو الفيلسوف ، وقد حرج الدهان بتبنيحتين متناقضتين من فكرة واحدة يراها أحدهما مذهباً على وجود الله وبراهن الآخرة معنية عن البحث في إثبات وجود الله ، وقد سأل نابليون بونابرت أكبر علماء الفلك في زمانه - لابلاس - عن مكان العناية الإلهية في حركات الأفلاك ، فكان جوابه أنه لا يرى لها مكاناً فيما يعلمه من تلك الحركات ، كأنه يقول إن قوانين الحركة وحدها تفسر دورة الفلك تفسيراً يعنى عن النظر إلى حلة أخرى وراءها ، وهو أسدود من التفكير ناقص السبب الذهني الذي يرافق دورة الفلك ويعلم أن العقل لا يستدرج حصولها على هذا الوجه دون غيره ، وأنه لا بد - إذن - من البحث عن الإرادة التي اختارت لها هذا الوجه من الحركة فانتظمت عنيه ..

ولعل السارق بين هذين لفطين من التفكير يتعلق بالطرة إلى النظام والمعجزة ، فمن كان من القائلين بالتطور مؤمناً بأهمية الإلهية فطريقته في التفكير أن يستدل بالنظام الخلق على وجود الخلق ، وأن يرى بعد ذلك أن المعجزة لا تستغرب مع الإيمان بالقدرة الإلهية والحكمة التي تستدعيها ، إذا كان هناك ما يستدعي صنع المعجزات في رأيه .

ومن كان من القائلين بالتطور معطلاً لمعقده الدينية ، فطريقته في التفكير أن الترهيق متعذر بين تفسير الكائنات بالقوانين الطبيعية وبين حرق هذه القوانين لإثبات عقائد الدين .

لكن الرأي الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانهم قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأي في شيء . وأن هذه المعارضة ينبغي أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التي لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة ،

ويعبر عن هذا الرأي في كتاب مؤلف هذا العرص عالم من أكبر علماء الرياضيات
وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكي
وصاحب كتاب «العلم والعقيدة المسيحية» ومدار الرأي فيه كله على هذه الفكرة
سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث

سلسلة الخلق العظمى

سلسلة الخلق العظمى مذهب يوارى مذهب التطور ، ويشمى معه في معظم الطريق . ولكنه لا يتدنى معه من البدية ولا ينتهى إلى العاية .

وصفوة لقول بسلسلة الخلق العظمى ، أن الوجود درجات متفاوتة في ترتيب الصفة والشرف ، تتدنى من المادة الأولى التي لا صورة لها وترتفع إلى مرتبة الوجود الإلهي الذي تمحض له العلم والخبر فهو علم لا يعرض له الجهل ولا يحتجب عنه سر ، وحير لا يشوبه الشر ولا يقع له في إرادة

وهذه السلسلة العظمى كاملة في انتظامها لكل حلقة من حلقات الوجود ، وكل قديمة من قابليات الصفات والأعراض ، فلا تمرع السلسلة العظمى من إحدى هذه الحلقات ، ولا يعقل أن توجد في الامكان قابلية لشيء فقد ولا توجد في الواقع مع حلقة من حلقات الوجود السفلى أو العلوى .

• • •

والرائد الأكبر هذا المذهب بين الأقدمين أفلاطون المنقب بالحكيم الإلهي ، فهو الذي وصع هذا المذهب توصيفا فلسفيا وبناه على حجة عقبية ، وهي أن الإله وهو خير محض - يأتي له كرمه أن يصح على شيء ، كائنا ما كان ، بصفة الوجود فيها يلع من حقارة شأنه فهو مستحق لخصته من لوجود في مرتبته من الخلق ، ومستحق لأن يصعد من هذه المرتبة إلى ما فوقها بصفة من الله وبما ركب في طبائع الأشياء من شوق إلى الكمال

والراجح أن هذا المذهب وصل من الهدى إلى حكماء اليونان من طريق العبادات السرية التي عرفت باسم الحل « الأورفية » وسبق ناقله من كبار الفلاسفة اثنان هما فيثاغورس ومندوقليس . وكلاهما يقول بساسح لأرواح ، وينشط في معيشته على نظام الرياضة الصوفية والرياضة البدنية ، وبين أتباعهم من كان يجمع بين التقشف وممارسة الرياضة البدنية ويعبر في ممارساتها العامة

وقد كان فيثاغوراس يحجب أكل اللحوم ، ويقسم الأعذية إلى صالحة للروح وغير صالحة لها بهيمية ، وكأنه كان يحرم كل للحوم لأنها مأكلة السباع وحرم أكل الفول وما إليه لأنه مأكلة الهائم ، ويحسب أن الأرواح تنتقل بين الأجساد لترتفع أو تهبط في درجات الخلق ومراتب البهيمية والروحانية ، وله من الأقوال المقتضبة ما يشبه مذهب اهد في الدورات الأسدية التي يحسبها بعدد مقدور من ألوف السنين ، مع قسمة السنين إلى شمسية وكونية .

• • •

وجاء بعده اميدونييس ، تقسم درجات المادة واعتبر العناصر الأربعة أشرفها وأعلاها ، وسماها بالحدور قبل أن تعرف باسم العناصر وتسمى بعصر النار وعصر الهواء وعصر الماء وعصر التراب .

- ولعالم عدد أصحاب الفول بالسلسلة العظمى ، عالمان ، كبير وصغير ، فالعالم الكبير Macrocosm هو الكون كله ، اشتمل عليه من كائنات عنوية وسفلية ومن مراتب روحية وبهيمية ومادية ، والعالم الصغير Microcosm هو الإنسان ، لأنه يحتوي في تكوينه كل عنصر وكل مادة وكل درجة ، ويتقبل الارتفاع إلى صفات العلم والخير ، أو صفات العقل والتدبير التي تمت للإله على أكملها وأرفعها ، كما يتقبل الهبوط إلى مرتبة بهيمية وما دونهما ، وفي الإنسان شيء من خصائص الأجسام المادية ، وشيء من خصائص الأجسام اساتية ، وشيء من خصائص الأجسام الحيوانية ، وشيء من خصائص الروح الذي يكون للملائكة بغير حسد ، وشيء من المعرفة التي يقرب بها من الصفات الإلهية .

وبد انتقل مذهب سلسلة لعظمى من لهد وبيونان إلى العرب ، وانتقل من العرب إلى متصوفة الأوربيين ، وكان من تلاميذ الحكمة العربية رحل تسم عرش النابوية في آخرة سنة قبل مائة القرب العاشر (٩٩٩ م) وهو سلمس الثاني ، وظهرت آثارها في أقوال القديس توما الاكويي ولبرت الكبير ووبري الأستاذ آمين بلاسيوس الاساي أن نزعات ديني الصوفية وأوصافه لعالم العيب مستمدة من محبي الدين من عرب بغير تصرف كثير ، ومن المعلوم أن أول اعلاسة الصوفيين من

العربى جوهان اكهارب الألماني - نشأ فى القرن التالى لعصر ابن عربى
ودرس فى جامعة باريس ، وهى الجامعة التى كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية فى
الحكمة والعلوم^(١) .

ولعل كهارت هو أسبق المقتنسين من المتصوفة العربى لقول ابن عربى ، إن
الله هو الوجود الحق وإن كل ما عداه من موجود بوجوده عارية ، وهو قوب فى
جملة يعيد إلى الله قول أفلاطون إن الله هو مقياس كل حقيقة رداً على
بروتاجوراس Protagoras الذى كان يقول : إن الإنسان هو مقياس الوجود ، وإن
الله أهم عن الإنسان بالحياة « الرمية » لأن الرمز محاكاة للوجود الأبدى الذى
احتصر به الإله دون سواه ، وليس بين القولين تناقض فى النهاية ، لأن أفلاطون
يعود قبض على العقل صفة الله العليا - درجة يبلغها الإنسان ولا يدركها
من دونه من المخلوقات ، ولكنه قد يعطو بالعقل فوق مرتبة لادته التى تمتزج بالعمل فى
تكوين الإنسان .

* * *

وقد كان لفلسفة أرسطو نصيب غير قليل من الأثر فى توجيه عقول الأوربيين منذ
القرون الوسطى إلى مذاهمهم أو أقوالهم ، فى سلسلة الوجود العظمى ، لأنه رتب
الموجودات على حسب نصيبها من الخس ، وقارب بين النبات والحيوان ، فجعلها
مشتركين فى « النفس » النامية ، وكاد أن يجعلها رتبة من رتب العمل يتوسط فيها
النبات بين الجماد والحيوان ، ولم يكن فى تصفئه لمكائنات حاصل حاسم بين الحيوان
وما دونه لأن « التولد الدائى » كان فى تقديره من الممكنات ، وانقصت بعده
القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث قبل أن تظهر للعلماء استعانة تولد الحيوان
من غير الحيوان .

ونقل اللاهوتيون الأوربيون فكرة سلسلة العظمى ، كما وصلت إليهم من

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للمؤلف

مفكرى العرب ومنصوفتهم ، فلم يجدوا فيها تناقضا يكرهه بين نقول خلاص
الإيمان بالإيمان وهو شرط وأخلاصون أن العقل هو الصفة الإلهية اى يتجلى ٣
الإيمان ويعتدوها من أفق الخلائق الدبا إلى أفق السمة لإلهية وإن الإنسان معرفته
للأشياء محتوية ويملكها ويؤمن على تديرها محاكاة لقدرة الله على تدير الخبير
مخلوقه ، فإن التناقض بين خلاص الإنسان بالإيمان وخلاصه من أوهام المادة
بالعقل والمعرفة ، يبطل ويرون متى اعتقد المفكر أن العقل الرشيد سبيل إلى الإيمان
بالله والتعويل على البركة الإلهية في تطعمه إلى اسحاة والخلاص

ولم يصطدم الرأىان من بعض الجواب إلا بعد ظهور فلسفة ايبلاز (١٠٧٩
١١٤٢م) الذى عسر السلسلة العظمى بأنها لازمة ضرورية تستوعب كل
الممكنات ، فيستحيل أن يوجد شئ غير ما هو موجود ، لأن الخالق فى علمه
وقدرته يعلم جميع الممكنات ولا يعجز عن تحقيق ممكن منها يتعلق بعلمه ويرادته ،
فأنكر علمه معاصره برنارد دى كلفرو (١٠٩١ - ١١٥٣) داعية الحرب
الصليبية الثانية ذلك التفسير ، وقال إنه يناقض ما يبنى أن تؤمن به من غضب
الله على الخطيئة والرديلة ومن إسماعه بالخلاص على الخطية ، وكان القديس
نوما الاكويى (١٢٢٦ - ١٢٧٤) يميل إلى تأكيد برنارد فى اصراربه على تفسير
ايبلاز ، ويكاد يعيد ردود الغزالى على ابن رشد فى مثل هذه المناقشة ، فيقول .
إن خلق الله لهذه الموجودات على سبيلها التى أودعها فيها لا ينهى قدرته على خلق
غيرها رائدا عليها ، ولا يهين قدرته على خلقها مرة أخرى فى صورة غير هذه
الصورة ، فليس انتظام سلسلة الخلق مانعا أن تنتظم ها حلقات غير هذه الحلقات
وسلسلة غير هذه السلسلة مع استيعاب الله جميع الممكنات ، لأن التبديل فى
الممكنات غير مستحيل وجاء بيكوديل ميرندولا (١٤٦٣ - ١٤٩٤)
Pico della Mirandola فقال بما كان يقوله المنتصوفة السديمون من قبول الإنسان
لأرفع المراتب وأدناها ، وإن كل مخلوق قد يلتزم مكانا من سلسلة الخلق لا يعنوه
إلى ما فوقه ، إلا الإنسان فإنه لا يتقيد بمكان من السلسلة العظمى غير المكان
الذى يرتصيه نفسه ، علوا إلى مرتبة الملائكة المقربين ، أو سحلا إلى مرتبة البهائم
والحشرات .

وعاد البحث في مكان الإنسان بعد كشف كوبرنيكوس لنوران الأرض حول الشمس ، وتجدد المناقشة عن مركز الخليفة وعن مكان الإنسان على هذا المركز محذر . فقد يجوز أن يكون للعالم الأرضي نظراء له من العوالم السحابية وأن يكون تلك العوالم سكنا من الخلائق العقلاء ، ولكن هذه مناقشة لم ترعرع أساس الفكرة التي تسلسل الموجودات من أدناها إلى أعلاها في العالم المعروف ، وفي كل عالم يمكن أن يعرف قياساً عليه ، وظلت فكرة السلسلة العظمى عالبة على الباحثين في مركز الإنسان من الحقيقة ، وقال بها فلاسفة لشعراء كما قال بها فلاسفة الحكمة والدين إلى زمن قريب . وعلى أساس هذه الفكرة نظم الشاعر الإنجليزي اسكتلربوب (١٦٨٨ - ١٧٤٤) قصيدته الكبيرة التي سماها مقالة عن الإنسان ، وقال فيها مخاطب الإنسان

« اعرف إذن نفسك ، ولا تدع الإحاطة بعم الله

« إن دراسة الإنسان المثلى هي الإنسان

« قائما على برزخه هذا من الحالة الوسطى

« مخلوقا عاقلا في طرفة ، عظيما في خشونة

« أعم من أن يكون « شكركيا » لا يدري

« وأضعف من أن يكون « رواقيا » يصير

« معلقا بين العمل والراحة

« معق بين الإهانة والهيمنة

« معلقا يتردد بين إثارة عقله أو بدنه

« يولد ولكن يموت ، ويعلم ولكن ليحيط »

« محيط به الجهل نقص علمه أو زدد

« ويحتلظ أمره في هوصى من المكر والشهوة

« وهو الذي يسيء إلى نفسه أو يتجنب الإساءة

« مخوفاً بصفه يرتفع و بصفه ليسجد »

« سيداً لجميع الأشياء و هريسة لها جميعا »

« وهو الحكيم الوحيد فيما هو حق و باطل ولكنه يصطرب في خطأ دئم »

« ولا يزال فخر خلقه ، و سحريتها ، و نعرها انما يصح ، في آن »

و هذا هو مكان الإنسان الأوسط ، بين حلقات هذه السلسلة العظمى

« التي إذا انكسرت إحداها وقع الخلل في سائرها »

وحاء بعده شاعر آخر هو جيمس نومسون صاحب قصيدة الفصول (١٧٠٠)

(١٧٤٨) عظم الوجود من طرق هذه السلسلة العظمى « بين الكمال الذي لا حد

له ، و بين حافة الهاوية السطى و العدم المرهوب »

• • •

و توقف لبحث في سلسلة الخلق العظمى بعض المتوقف بين أواخر القرن الثامن عشر و أوائل القرن التاسع عشر ، ولكنه لم ينقطع ولا نعتقد أن لاقطاع عن البحث يعرض لمسألة الإنسان و مركزه من تكون في زمن من الأزمان ، وإنما انقطع البحث فترة بسيرة ، ليتحدد بكل ما يستطيع من قوة مع البحث في مذهب التطور و في علوم الأحياء عامة و علم الإنسان خاصة على هذا النطاق الواسع الذي يشمل اليوم علم الحياة أو « البيولوجى » و علم الحيوان « زولوجى » و علم الأحاسيس البشرية « الاثنولوجى » و علم الإنسان « الاثنوبولوجى » عدا ما بحث شتى تتصل بمعلومات العامة عن الإنسان و مركزه بين الكائنات و آراء علماء لطبيعة و آراء الفلاسفة و المفكرين .

• •

و يعود إلى السلسلة العظمى عند العرب الذين نقلوا أهم مصادرها إلى الأوربيين ، فنقول بهم عرفوه كما تقدم - من مصادر شتى ولم يجمعوه دستوراً عام يحيط بالوجودات و يقرر للإنسان مكانه على مذاهب لقائلين تتدث لسلسلة . لأن مكان الإنسان كما ورد في آيات القرآن الكريم أعماهم عن لقول ممكن به يسسه

إلى سلسلة الخلق ، ويلحقها بها لزاد على طريقة الأقدمين في إلحاقه بغير الخلائق
الآدمية .

وإنما عرفت حكماء العرب أقوال تشير إلى ترتيب لسلسلة في مواضع متفرقة من
بحوث العلم أو الدين .

ومما ترتيب آفاق الموحودات كما تقدم في فصل « التطور قبل مذهب التطور »
من هذا الكتاب .

ومما الكلام على « النفس والروح والعقل ، والفرقة بين مراتبها ، ابتداء من
النفس التي كان أرسطو يجعلها قوة مشتركة في الخلائق النامية ، إلى الروح التي تعود
على النفس في هذا الاعتناء ويمتاز بها الإنسان عما دونه ، إلى العقل وهو الصفة
اللاهية التي يتحلى بها الإنسان ويقترّب بها من أفق الخائى أو المحرك لدى تقترّب منه
الموحودات بمقدار حركتها إليه ، وشرعها حركة الإنسان إلى المعرفة وشوقه إلى الكمال

• • •

وعرف القول بالعدم الأكبر وعالم الأصغر بين المتصوفة ، كما جاء في آيات
نسب إلى الإمام على بن أبى طالب ولم تتحقق نسبتها إليه ، ومما عرّ لالسان
دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تفكر
وترغم انك حرم صعد سير ، وهبت انطوى لعالم الأكبر

ورافق القول بسجاة الإنسان بعقله ما ورد في آيات القرآن الكريم من الأمر
بالتهكير والتدبر ، فقال به كثيرون من حكماء الإسلام ثم فرق المتصوفة والمتسكّون
بين صربين من المعرفة أحدهم يستقيم بصاحبه على سبيل الهداية ، والآخر يلتوى به
دون قصد السبيل ، وكذلك قال ابن مسكويه بعد كلامه المتفرد في فصل آخر :
« إن هذا الشوق ربما ساق الإنسان على مهج قوم وقصد صحيح حتى يسهى إلى
عبادته كماله وهي سعادته لتامة وقها يتحقق ذلك وربما اعوج به عن السميت
والسب ، وذلك لأسباب كثيرة يطول ذكرها ولا حاجة بك إلى علمها الآن
وأنت في تهذيب خلقك فكما أن الطبيعة المدبرة للأحسام ربما شوق إلى ما ليس
بنام الجسم الطسمى لعين تحدث به وآفات تطرأ عنه مبرلة من يشنق إلى أكل الطين

ومحرقى محرق . لا يمكن طبيعة الجسد أن يهدمه ويحسده - كذلك أيضا النفس الناطقة ترى اشتاقت إلى الطور وتغير اندى لا يكملها ولا يشونها محرو سعادتها بل يحركها إلى الأشياء التي تعوقها وتقصرها عن كمالها . فحينئذ يحتاج إلى علاج نفساني روحي كما احتاج في الحالة الأولى إلى طب طبيعي جسماني . ولذلك نكثر حاجات الناس إلى المقومين واسفعين وإلى المؤدبين والمسددين . فإن وجود تلك الطوائف الفائرة التي تنساق بذاتها من غير توقف إلى السعادة عسرة الوحود لا توجد إلا في الأرملة الطوال والمدد البعيدة . وهذا لأدب الحق الذي يؤدي إلى عابتنا يجب أن يلحظ فيه مبدأ الذي يحرق محرق العاية ، حتى إذا لحظت العاية تدرج بها إلى الأمور الطبيعية على طريق لتحليل ثم يتبدى من أسهل على طريق التركيب . . . وينبغي أن يعلم أن كل إنسان معد نحو فصيلة ما ، فهو إليها أقرب وبالوصول إليها أخرى ، ولذلك تصير سعادة الواحد من الناس غير سعادة الآخر ، إلا أن اتفق له نفس صافية وطبيعة فائقة فيسمى إلى غايات الأمور وإن عبة عابته ، وأصلي لسعادة القصوى التي لا سعادة بعدها .

ويرى المتصوفة أن المعرفة معرفتان كما يرى الحكماء من أمثال ابن مسكويه ، ولكنهم يقسمونها إلى معرفة لدنية ومعرفة كسبية ، ويقصدون بالمعرفة الدنية ما يدركه الإنسان بالإلهام والاستشراق ويهتدى إليه برضاة النفس وقبح الحسد ، وهي معرفة غير معرفة بتعليم والدراسة ، عن حد قول سعيد بن أبي الخير فيما روى من كلامه عن ابن سينا « أن ما يرى على صوم المصباح وصل إليه هد لأعشى معكازه »

ويتممه قول ابن سينا عن مجلس انصاف أنه حادة يقاس بها عقل الإنسان مصدر لعقول جميعا ، هيدرك بالاهام والتوفيق ما ليس يدرك بتداع بالدرس والبرهان .

وفي غير هذا الفصل بيان لمذهب حجة لإسلام الإمام لعراى في حكمة الموجودات وحكمة خلق الإنسان بين حقائق السماوات والأرضين ، وهو أمثل ما يقال عن سلسلة الخلق لعظمى تفسير أهل السنة ، على هدى القرآن الكريم

الإنسان في عالم الحيوان وفي علوم الأجناس البشرية

الإنسان من العقاريات Vertebrates ، ومن الأوائل Primates بين العقاريات .
وهذه الأوائل تسمى أحيانا بالبشریات Anthropoids وتشمل الإنسان والفردة
العليا ، وهي العوريل ، ولاوراج ، والشيمانزى ، والحيون .
ويختص الإنسان من بين البشريات باسم يهر . وهو اسم الجنس Hominidae
كما تختص الفردة على عمومها باسم الإنسانيس simidae فيعرفهما هذان الاسمان
حيث يجمعهما اسم البشريات

ويرى بعض علماء الأحياء أن اسم الأس يطلق على الكائن الذى وجدت بقية
من حممته في حفائر حاوه وأطلق عليه الدكتور Dubois الذى وجدته اسفة
Pithecanthropus Erectus بدلالة بقاياه على اعتدال قامته وامتياره باتساع الدماغ
على البشريات ، ولكن الرأى الغالب اليوم أن النوع الإنسانى بمראה الذى بقيت له
اليوم يختلف في الخصائص الإنسانية لصاحب تلك الجمجمة ، وأن هناك اختلافاً غير
قليل بين أسمى الحفائر من قبيله وبين الإنسان الذى يطلق عليه اليوم اسم الحيوان
الماطق أو العارف أو المميز Homo Sapiens من الكلمتين اللاتينيتين «هومو» بمعنى
بشر - و «سابين» بمعنى ذى فهم أو ذى إدراك أو ذى كياسة

• • •

ونقل هنا خصائص النوع الإنسانى في علم الحيوان ، كما أثبتتها أقدم الكتب
العلمية التى عشت مذهب التطور باللغة العربية ، وعينت بإيراد أوجه الاعراض
عنه وأوجه الاختلاف بين الإنسان وغيره من البشريات من الوجهة التشريحية كما
قررها علم الحيوان قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ومعنى به كتاب «توزيع الأذهان في
علم حياة الحيوان والإنسان» لمؤلفه الدكتور بشارة رلزن وقد صدر الإذن

نطعه من بطارية المعارف ، لآستانه تاريخ ١٣ رجب سنة ١٢٩٧ وتم طبعه بعد ذلك
منبعة مجلة الجامعة في الإسكندرية

قال المؤلف في الصفحة (١٦٧) من المجلد الأول « فإذا نظر إلى الإنسان على
سبيل المقابلة بتلك القردة نرى أن لا شيء أقرب للحيوانات إليه ، يرى أن الإنسان
ماش منتصب القامة على قدميه ، لأن سسنة ظهره مقوسة في العنق وفي الظهر وفي
الصلب ، وليس للقردة شيء من ذلك . وعبء ذلك على ما قال بعض المدققين
زيادة نمو دماغ ، لأنه يؤدي إلى كبر القحف ، فتتغير الحسنة بدليل عدم استوائها
في الأظفار وبسبب عليه تكون عوارية الرأس لبدن سبباً لاستواء الجمجمة على
العمود الفقري ، وقلوا إن الأقواس الثلاثة المذكورة تكون في الشمذير أوضح مما
هي في المتوحشين وعلى احملة من مورثة الرأس مع بدن في أكثر الحيوانات
البوية ناط بالأربطة العنقية ، وهي قوية جداً في القردة بالعصلات المثينة التي
تندعم في لخدال والساس (استواءات الشوكية) وهي فيها أطول وأغلظ مما في
الإنسان بصغير ، ويتوقف عليها وعلى الرأس حفظ الرأس على الوضعية الأفقية فلا
يصعظ على لصدر بذلك ، وليس الأمر كذلك في الإنسان لأن ثقل جمجمته
يتكافأ مع ثقل البرود الوجهي فيستوى الرأس على الطامة بدون أن يكون للعصلات
والأربطة العنقية إلا المحافظة على المورثة المذكورة ومقاومة ميل الرأس إلى الأمام .
وبذلك كانت هذه الأربطة في الإنسان ضعيفة قال الأستاذ بروقا Proca وتابعه
كثيرون ، أن السبب في نقصان قامة الإنسان واستوائه ماشياً على قدميه أنه هو عو
الدمع ، لأن هذه المشية تجعل اليدين مطلقتي الحركة والنظر منحجاً إلى الأفق .
وطفل الإنسان يشبه الدامات ، لأنه عديم الأقواس العنقية فلا يظهر القوس العنقي
إلا متى ابتدأ الطفل أن يصبط رأسه في الحسنة التي يعود عليها ، وذلك في الشهر
الثالث من عمره وفي السنة الثانية عندما تكون القوس لظهره من جراء هضم
العصلات الظهرية ولصلبية بالقطر السفلي للعمود الفقري ، وذلك إذ يبتدئ الصل
أن يدرج

« والجمجمة فإن الخاصة نرى بصدرها حسن تقوم الإنسان ويتوقف عليها
مسيره على سائر الحيوان ، وتفاوت بحسب مراتب الأمم في المدنية إما هي مو

الدماغ وزيده حجم الجمجمة . وقد أجمع الدخثون على أن معدل وزن الدماغ في الأوريسين يكون متوسطه في الرجال ١٣٦٠ غراما ، وفي النساء ١٢٠٠ غرام ، وأغلاه ١٦٧٥ غرام ، وأدناه ١٠٢٥ غراما .. وما نقص عن ذلك يدل على البلاءة بعة أو آفة .

« والقروء الشبيهة بالإنسان أكبر الحيوانات دماغا ، ومعدل وزنه لموسط فيها ٣٦٠ غراما . وعابة ما بعه في الأوريسين ٤٢٠ غراما ، وقد عد ذلك من الشواهد وعلى قدر نمو الدماغ تزداد سعة القحف ويقل البرور الوحي ، والفرق بين الإنسان والحيوانات من هذا القليل أوضح من أن يبين . فإذا نظرت إلى جمجمة إنسان من الأعلى لا ترى لبرور بوجهي خلاف ما إذا نظرت إلى جمجمة القردة وغيرها من الحيوانات . وإذا نظرت إلى جمجمة القرد من جانب ، ترى الوجه شاحص إلى الأمام يؤلف خطا مستطيلا ، وذلك من الخصائص انبهيمة ويستدل على معرفة درجة هذا البرور باراوية الوجهية . وفصلا عن ذلك فإن الجزء الوحي لعظم الوحى قليل انتوه في الإنسان بخلاف ما هو عليه في القروء . إذا نظرت إلى الجمجمة من انور لا ترى الثقب المؤخرى في جمجمة الإنسان وراه كله أو قسما منه في جمجمة القروء . وهذه الأعراف لدانة على الشراسة والبصاة السيمة في القروء غير موحودة في الإنسان وهي لازمة فيها عن نمو عصلات الصغيرة التي يترتب عنها تحريك المكيب الصخمين ، وعن نمو عصلات القذب التي يتوقف عليها اسناد الرأس على العنق . ومعوم أن فحف الحيوان الصغير لا يتسع لاسدعام هذه عصلات فيه ، فحيث وجدت صطرت السبيح العظمى في انان نمو أن يهيها مندعا . فشا عرف . والدليل على ذلك أن هذه الأعراف لا توجد في القروء الصغيرة . ومثل ذلك يقال عن لتؤات الشوكية الدارة في عنق العور ، ولما كانت هذه الأعراف والتؤات أصغر في الأورال مما هي في مائر لقروء م يتوارن رأسه على سبه ، فيرى الخطم الثقيل مدلى على صدره ، ولذلك حص بالاكياس الحجرية تلطيها لصعط حطمه عن بحرى اهواء ، أما الحيوان محطمه صغير وأعراه قبيلة انتوه ولاكيس الحجرية غير موجودة فيه ، فهو أقرب القروء إلى الإنسان ونكر

فمن دراعه يبعده كثيرا عن الإنسان ، لأنه يتوكلأ عيها في مثبه كما يتوكلأ الإنسان على هراوته .

« ومن الخصائص الفارقة بين الإنسان والقرد انهما الرجل ، فهو في القرد أثمه باهم اليد لأنه يقاوم كلا من الأصابع ويلاصقها ، وهو ليس كذلك في الإنسان ، لأنه يناسب فيه حالة المشي وانتصاب القدم كما أنه يناسب في القرد حالة التسلق والإمساك

« ومن هذه الخصائص تباين شكل الأسنان وحجمها ، فأسنان الإنسان نالسة إلى جسده أصغر مما هي في القرد ، وبدا تأملت في الصورة راعنت من منظر انحول أبيه ، أم الواحد والطلوح في هذه الحيوانات فكبيره جدا ، نالسة إلى طول القسم الوحى من لحمية . وما عدا ذلك فإن وضع الأسنان في سح الإنسان على سق منتظم خلافا لما يرى في القرد حيث يتحلل نالى امث اعوى وثيايه حلاء تتداخل فيه أسب الفك والخصائص المميزة للإنسان تردد وصوحا بتقدم المدنية والعمرا ، لأن اختلاف طرق العاش يؤدى إلى تنوعها فتتبعه عن الحالة الطبيعية كما ترى في أبواس العمود لفقري ، فإنها في المتدين أكثر وصوحا مم هي في المترحشون .

وبرجع علوم الإنسان إلى علم حيوان لدراسة نواريح انشر الاجتماعية ، كم نرجع إليه حياء في دراسة تهمهم انشاق مد وجد الإنسان لخصائصه المعروفة لحيوان الناطق *Homo Sapiens* . وقيل وجود هذا الإنسان في العصور السحيقة لتي استحلمت بها الآلات على شئ من الخشونة البدائية وبشيع . من أجل هذا . أن هذه العلوم قد تأثرت بمذهب التطور كم سطره لامارك ، وكما سطره دارون من بعده ، ولكن لأصح أن المعلومات المتشعبة التي تجمعت من درس الحمائر وطبقات لأرض ورحلات الجغرافيين واسعويين بين أرحاء العالم القديم والعالم الحديث . قد كان لها أثره انين في مذهب التطور وفي سائر علوم الاسايه متعددة ، ومنها علم السلالات وعم الإنسان وعم الاجتماع وعلم النفس وعلوم المقارنة بين اللغات .

» * »

ومحصل هذه المعلومات «متشعبة بين العلوم الإنسانية أن ابشر وجدو وانتشروا على جهات متقاربة من العالم القديم منذ العصر «ميوسيني» Miocene قبل نحو مليوني سنة ، وأنهم كانوا يومئذ على حالة متوسطة بين الحيوان الذئق وطفة بشرية دون هذه الطلقة ، ثم تميزت خصائص الإنسان بعد ابتداء العصر الحليدي منذ نحو مليون سنة ، ولكن الإنسان الذي استخدم الآلات وصنعها من العظام والحجارة لا يعرف له تاريخ جلي قبل مدة تتراوح في تقدير العلماء بين مائتي ألف ومائة ألف سنة . وكنت بداية أنتشر الجماعات الإنسانية بين القارات الثلاث منذ العصر الحجري الأول ، ثم تلاه العصر الحجري الحديث الذي تميز فيه الإنسان بأكبر مزاياه ، وهي الوحدة الاجتماعية ولقدرة على استخدام الآلات ودر وتسخير سائر مخلوقات ، وتدجين لأوبد على مراحل متسعة ، أواخر مرحلة تدجين الكلب للاستعانة به في الصيد ، وتأتى بعدها مرحلة تدجين الماشية والحمار والحصان للاستعانة بها في الزراعة وفي الانتقال من مكان إلى مكان حيث يوجد الكلاء والماء

وفي هذه المرحلة ملك الإنسان دماغه الخليله ، وسع منزله انى استحق ما أن يسمى نفسه سيد المخلوقات ، ونمده سبل السيطرة على الحيوان والنبات وطوهر الطبيعة حياء احتاج إليها ، ويعتقد بعض علماء السلالات البشرية أن الإنسان تقدم شأنه الأول في صراعه للحيوان وظواهر الطبيعة ، ثم تقدم شأنه الثاني والأهم في صراعه بينه وبين أبناء نوعه ، واتسع الفارق بين ملكاته في شأنه الأول وملكاته في شأنه الثاني بمقدار اتسع الفارق بين خيلة التي تلزم للنعب على الحيوان والخيلة التي تلزم للنعب على أمشاه من الآدميين ، ثم ترم لا ابتدع وسائل أخرى للنعب كلها تساوى الناس في وسائلهم المشتركة

وقد كان الناس قبل شيوع الآلات وتدجين الحيوانات سلالة واحدة ، لا تختلف في الملامح والألوان ولا يظهر بين بقاياهم الأثرية ما يدل على فارق عبرى كالمورق التي تختلف في اليوم سلالات البشر من سكان العدين القديم والحديث

* * *

ولكن بدءا انتعاب بين اشترى مواقع اسكن ، وفتح الطريق لاختلاف سلالات على حسب الاقليم والمناخ والقدرة العقلية على الاحتفاظ بملكه أو على

أشجرة منه إلى غيره ، ويعرى إلى هذا ، انصرف ظهور السلالات الأربع المشهورة
وهي التي تسمى عند علماء السلالات بأسماء مختصة ، أوصحها أسماء ألون البشرة ،
وهي البيضاء ، والسمراء ، والصفرة ، والسوداء ، وقد أحصى بعض العلماء
أربعة وثلاثين لونا تتراوح من الشقرة إلى السواد فاحم ، ولكنها كلها تنزل إلى ثلث
السلالات الأربع عند تغيير بينها بأشكالها وملاحيها الحسدية

وأبرز الفوارق بين السلالات - عبر لون لشرة شكل الشعر والأف
والفك وطول النقامة - وقد تعرف القرابة بين السلالات التي انفصلت بين القارت
ما بينها من التقارب في شكل الشعر دون غيره ويرجحون أن سكان أمريكا
الأصلاء وسكان آسيا الشرقية من أصل واحد ، بل بينهم من الشابه في استقامة
الشعر ونخشونته ولونه انصرفت إلى السواد وقد أمكن اليوم تعليل أبرز الفوارق بين
سلالات البشر بأسباب المناخ والأقاليم ، فمسب لأف الافطس والخلد الأسود إلى
فعل الحرارة ، كما سب الأف الأفى الطويل والخلد الأبيض إلى برد الإقليم
واحتياج سكانه إلى وقاية الرثة واستعانتهم عن نصعة الحديدية حيث يلطف وقع
الاشعة على البشرة ، ومثل هذا السب يعللون اختلاف شعر بين العمومة والفوح
وبين الخشونة والتجعد ، وبين الشعر الحريري والشعر الصوفى في الشكل والملمس ،
ولا يصعب تعليل خاصة عنصرية واحدة بعلة - أو مجموعة من العلة -
ترجع إلى المناخ وأحوال المعيشة .

إلا أن الفوارق الفكرية أصعب من هذه الفوارق الحسدية تعبيلا بأسباب المناخ
وأحوال المعيشة ، وأبرزها فوارق نلعه لأنها قابلة لنصط والتقسيم ، أو هي أدنى
إلى تقسيم بالصوائط والعلامات من فوارق التفكير والبواعث النفسية ، وقد تكون
علامات اللغة مما يستعان به على جلاء الفوارق الفكرية وفوارق الشعور والاعتقاد
واللغات في تصنيف بعض عباها - قد تقسم على حسب الأجناس
ولسلالات التي تتكلمها ، ولكنه تقسيم يقع فيه الاختلاط لاشترك الأمم في لغة
واحدة ، أو عائلة لغوية واحدة ، مع انتابها إلى أصون متباينه في أحاسيسها
وعاصرها ، وخير من هذا التقسيم أن تقسم اللغات على حسب تكوينها وتكوين
لكلمات ونوع لحو في مفرداتها وبركيها ، وهو تقسيم يصط الفوارق بينها صطا

كافيا للموازاة بينها والمقارنة بين عوامل التقدم وعوامل الجمود والتأخر في تراكيبها وتعبيراتها .

وتنقسم اللغات من حيث التكوين إلى لغات لحي ، وهي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، ولغات التجميع ، ولغات الاشتقاق . ولغات اللحي هي التي تتكون فيها الأسماء والأفعال والصفات بإدخال المقاطع الصغيرة عليها أو إلحاقها بها ، وتسمى هذه اللغات بالعروية في اصطلاح الأوربيين . Agglutinative

ولغات التجميع هي اللغات التي يقع فيها اللحي ويعمل فيها التجميع عنه في اختلاف المدلول مع الزيادات التي تدخل على الكلمات أو تصاف إليها ، ومن مروع هذه اللغات ما تتكون أسماؤه وأفعاله في جملة تتألف من عدة مقاطع مرة أو غير مرة على سبيل واحد في جميع الكلمات ، ويعب على اللغات التي تتكون هذه التكوين أن تسمى بالمجموعة Polysynthetic مع وصفها بالعروية إلى جانب التجميع .

ولغات الاشتقاق هي اللغات التي يتم فيها العمل الثلاثي في كل مادة ، وتحري قواعد الصرف فيها عن المحافظة بين الأوزان بحسب معانيها ، ويكثر فيها اختلاف الحركة في أواخر الكلمات على حسب موقعها من الجملة ..

• • •

ويشيع اللحي في اللغات الهندية الجرمانية ، كما يشيع التجميع في اللغات المعولية ولغات القبائل الأمريكية الأصلية . أما الاشتقاق فهو من خصائص اللغات السامية ، وتكاد اللغة العربية أن تنفرد من بينها بعموم الاشتقاق وإطراده مع مراعاة الحركة على أواخر الكلمات حسب مواقعها من الجمل المفيدة .

وربما اتفق اللغويون على قواعد عامة ، عملت في تطور هذه اللغات جميعا ولا تختص بها لغة منها دون صائرها . ومن هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية ، ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الإنسان عموا من الأصوات والصيحات التي تنبع عن الفرح أو الفزع أو

الدهشة ، وما تكون الكلمة فيه أحيانا من ميل المحاكاة الصوتية Onomatopaeic كاسم ابدل ، والككو ، وألماظ الدق والقطع والوسوسة وما جرى مجراها . ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية كل ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة وإطلاق القاعدة الواحدة على التشبهات لفظا أو لفظا ومعنى . وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم في الثقافة تلك اللغات التي انتظمت قواعدها الصوتية Phonologie وقواعدها الصرفية Morphologie وقواعد التراكيب والعبارات Syntax ويضاف إلى الظواهر الصوتية والصرفية والعبارية في قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص في الصفات إجمالا وفي المفردات على التعميم ، كالتمييز بين المذكر والمؤنث والجمع ، وبين المفرد والمثنى والجمع ، وبين جمع لقلة وجمع الكثرة ، وبين الصفات العارضة والصفات الملازمة ، وهي جميعها من المزايا التي لا يحق لكاتب اللغة العربية أن يمر بها عرضا إذا جار ذلك لمن يكتفى بسرد العلامات اللغوية ويعمل دلالتها عند تطبيقها على لغته وقواعدها

في صدد الكلام على التطور الإنساني ، وعن تطور الإنسان الناطق بصفة خاصة ، يحق للبحث أن يشير إلى دلالة الدراسات اللغوية على مكان اللغة العربية من التطور وتحقيق الخاصة الإنسانية الكبرى ، وهي خاصة المطلق والتعميم . فقيام اللغة على القواعد لفكرية ديل لاشك فيه على سبق اللغة وتقديمها على لغات الاحتمال الحرفي وضع الكلمات ، سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ، وشيوع القاعدة في فعل كل مادة وفي تصريح الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير والتمييز وتعميمه على الأحداث والمعاني غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة ، ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وإمكان الجمع بين الوصف الحقيقي والوضع المجازي في كلام المتكلم لتوسيع المعاني وبناء الكلمات على مصاهاة بين المدلولات .

وفي قدم الإنسان الناطق Homo Sapiens أقوال متفرقة يأخذ كل فريق من علماء الأحياس البشرية بقول منها ، ويستعد بعض لابتعاد عن قول مخالفيه ورأى يرى واليوت سميت أن الثقافات البدائية في العالم المعمور تنتمي إلى أصل

واحد وهو أصل الثقافة بوادي النيل ، ومنه انحدرت إلى القبائل لقرية ثم إلى القبائل البعيدة ، فتخلفت معها وانتكست بانتكاسها أو تقدمت بتقدمها على حسب نصيبها من التقدم .

ورأى الأكثرين أن نطاق الثقافة الأول أوسع من ذلك في أصوله ، وأنه يشمل الخوص الشرق للبحر الأبيض المتوسط ووادي النهرين وأقاليم الشمال من الهند والصين .

والرأى الذي يأخذ بالمفهوم المنطقي ولا يتكلف الاستقصاء والمقارنة بين الآثار يحكم بضرورة تقدم الإنسان الناطق حينئذ وجد في بقعة من بقاع الأرض ، ولو لم ترتبط هذه البقاع برابطة جغرافية أو عصرية تدل عليها الآثار والظلمات ، ولا منع عند أصحاب هذا الرأي من استقلال ثقافة المكسيك وثقافة اليابان ، وإن حار الاتصال بينهما قديما قبل عصور التاريخ ..

* * *

والآن ، وقد مضت هذه الأشرطة الطوال على الإنسان الناطق ، وعلى ثقافته المتوالية ، يعتقد علماء لدراسات البشرية أن هذه النوع ، يقوم على معتوق الطرق بين وجهات الأرض جميعها وبين بقعة في الهند المجهول قد تستقيم به على سهج غير مسبوق ، وتشرع له دستور من العلاقات بين أنواعه وآخاده لم يعرف لها مثال في حضاراته الغابرة أو حضاراته المعاصرة

إن الأشواط العابرة قد انقضت - كما تقدم - على مرحلتين شاسعتين ، استغرقتا مئات الألوف من السنين : مرحلة الصراع مع الطبيعة ، ومرحلة الصراع بين الإنسان والإنسان للعبادة على سبادة العالم المعصور .

ولا تزال المرحلتان ماضيتين في عملها السامي والاجتماعي ، وفي عملها الفكري والأخلاقي ، فإن نسخير الدرة إنما هو امتداد لاستخدام النار بدأ قبل التاريخ ولم ينته إلى غايته حتى أواسط القرن العشرين وإن الصواريخ الموجهة بين القارات إنما هي امتداد للسلاح الحجري قبل ألوف القرون ، ويتساءل المستعصرون لغيره - من علماء الدراسات البشرية وغيرهم - هل من جديد ؟ ..

إن يكن شك في الجديد المجهول ، فالأحوال المكشوفة للطرقتنا أن القديم

غير القديم ، وأن التعبير الذى طرأ على القديم إنما هو هذا التقارب الدائم بين
أجزاء العالم وهذا التشابك المتفصل إلى الأعماق في مصالح الأمم والجماعات ، وهذه
الوحدة العالمية التى لا تنفصل فيها جماعة من الناس بحظر يصيبها ولا يصيب معها
القريب والبعيد من الجماعات ، شعوبا كانت أو طوائف وطبقات ..

بين الصراع بين الأمم ، وتغير منه أنه كان بالأمس صراعا بين أممين لتعليب
إحداهما على العالم المعصور حول الأمنين ، فأصبح اليوم صراعا بين شطرين من أم
العالم كله لتعليب محلة اجتماعية أو « ايدولوجية » على العالم كله بسلاح القوة أو
سلاح الدعاية ، ومصير هذا الصراع هو انقراض المجهول الذى يطالع الإنسانية
بإحدى حالتين : وحدة عالمية تجري فيها دساتير الحكم والتحكيم والأخلاق من سنة
« التضامن » والتسامح ولويين المخالفين في تفصيلات هذه الدساتير ، أو حرب
جائحة تنزل بالصحافة والآداب النفسية والعقيدة إلى الشنات والانتكاس ، وتعود
بالأمم إلى أوائل شوط جديد يعيدها كرة أخرى إلى جاهليتها المتروكة منذ دهور .
وعلى العلم اليوم أن يرصد ذلك العث ، أو تلك القيامة ، بما يفتح له من
وسائل النظر إلى الواقع معلوم والغيب المجهول

الإنسان في علوم النفس والأخلاق

أوسع المذاهب الأخلاقية تحتويه فكرة الحيوان الاجتماعي التي عبر عنها أرسطو بقوله : « إن الإنسان مدني بالطبع » وجعلته نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفته بأنه « حيوان ناطق » ثم وصفته بأنه حيوان اجتماعي ، تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع .

فيس بين الأحياء على وجه الأرض حيون يوصف بالتنطق والفترة الاجتماعية
غير الأنسان .

واسم « الإنسان » وحده باللغة العربية يعنى عن مذهب ، لأنه اسم يعتبر هذا الكائن الوحيد أساسا للألفة الاجتماعية حين نحب لغيره وقد لعب الشعراء بما فى انكساره من الجناس النعطي فقال أبو تمام :

[illegible]

وما سمى الإنسان إلا لسميهِ ولا القلب إلا أنه يضل

ولكن المقابلة بين الكميات قد بما وحديثا تبين بنا عن أصل هذا المعنى فإذ كان
الأنيس هو الذى يسكنه الناس ، والحيوان الأيس هو الذى يألف الإنسان فى
مسكنه ، وعبر دبت من الأمكنة أو الخلائق فهو المكان الموحش وسكانه هم
لوحوش .

ويسرى هذا المعنى إلى اللهجات البدوية الحديثة ، فيطلق أهل إبادية في
لصحراء العربية اسم « لعشرية » على الشاخص الأدهول ، ويطلقون اسم الخلاء على
ما وراء ذلك من رجال الصحراء التي لا تزرع ولا ترعى ، ولا يسكنها الإنسان ولا
الحيوان في عشرة طويلة .

إن الحاصرة الأوربية مد عهد الفلسفة لآعربية لم تبد إلى مذهب محيط « بالإنسان الأخلاقى » أوسع من هذا المذهب ولا أقرب منه إلى لباب المذهب الأخرى التى ظهرت بعده فى هذه الحاصرة .

أما الحاصرة العربية فصفة الإنسان فى لغتها وتمكيدها الصق به من أن تكون مذهباً بقلبه مذهب أخرى فى معناه أو غير معناه . إن صفة الإنسان فى هذه الحاصرة العربية هى اسمه الذى لا ينفك عنه ، وما من عجب أن « نسب » هذه صفة من إنسانية حيث تصح العاصل بين خصائص الأس وخصائص الوحشة غاية الانصاح .

ويكاد كل حاصرة كبيرة أن تمتاز بظاهرها فى تعريف الإنسان الأخلاقى ، أو الإنسان صاحب الصمير الذى يناهز به الحساب ويوصف بالحديد أو بالذئب من الأعمال والسادات

فالإنسان فى الحاصرة الإنسانية هو ظاهر وباطن كالوجود الذى خلق فيه . وظهره تحكمه قور بين السلوك العمل ويقاس بالقياس لاجتماعية وبكل ما ترتبط به مصانع المجموع Pluraustie وتسمى هذه لقوانين آداب الميامرا Miramsa ويظل أب وفدت إلى الهدم مع الشعوب الفاتحة التى جاءت بها « أدب العمل والحركة » فتعيرت مسقتها هـ لطامع بين فلسفات لانزوء واهرب من الحياة

وباطن الإنسان يستقبل باطن الوجود، ويسمون مسفته باساييسا Sannyasa أى فلسفة لتجرد من المادة ، وطلب الخلاص من لعة الولادة والموت بانكار الحسد وقع لشهوات الدنيوية والعروف عن صغائر الحوادث وكثرها على السواء ، ويوشك أن يكون كل مذهب « فصامى » على هذا النحو مستمداً فى انهاء من أصوله الهندية . وإن كانت نهاية مذهب إلى « اليوجا » التى تجعل الحسد والطبيعة كدب تبعا لرياضة الروحية .

وحاصرة نصير تميز الإنسان بالمعرفة وبوافق الحاصرة الأوربية لثى حكمة الحيوان مطلقاً « اجتماعياً كما توفى تعريفه العلمى الذى يعنى أنه مخلوق عير ومخوق صاحب ذوق وحس Homo Sapiens على حد اسمه المأخوذ من اللاتينية ولكن

معرفه في مذاهب الصين وهي « الزن » ليست عموما منفصلة المقدمات والنتائج مشروحة القصايا والبراهين وهي هي حالة كحادثة الرشد لدى ييلعه الشيع بحث بالنسبة لحرارة الصفولة ، قوامها القدرة على مقبلة الحودث والأشياء مقابلة بتصرف الرشيد ، لأسباب قد تعرف عند لشرح والتفصيل وتعرف له براهين وأسايدها بمعنى والكبت ، ولكنها حاصرة قل ذلك حصورا ساكنة رصيا في لدهن عبر معاني أو كلمات ، وشعرها عند الحكماء « إن من يعرف لا يتكلم ومن يتكلم لا يعرف »

وهذا « الإنسان في مذاهب الخصرت انكبرى مقبول شعرياته وصفاته في جميع الديانات والعقائد الروحية ، في وسع العلم لديني أن يقول بصفة جامعة من هذه بصفته دون أن تعرض مناقشتها ، أو يناقض اعتقادها لديني بتفسيرها على معنى من مختلف معانيها وفي وسع لعالم المادى أن يفسر صفات الإنسان على حسب هذه التعريفات دون أن يلتبس له مرجع وراء المادة والطبيعة محالا إلى عالم الغيب أو ملموسا مدركا في عالم الشهادة .

في وسع كل قائل بمذهب من هذه المذاهب أن يعلن أخلاق للإنسان جميعا بتنازع البقاء مع أبناء نوعه أو مع الطبيعة وعناصرها .

وفي وسعه أن يعلن الأخلاق الإنسانية حبيبا بفرصة حمص النوع على سعتها ، أو بفرصة الحسية في نطاقها المحدود علاقات الحسنيين

وفي وسعه أن يعلن تلك الأخلاق مطلب لقوة والسيادة . أو بطلب لأمن والدعة ، أو باستيعاب الطبيعة وتصوير للإنسان كل ما يحس في حطه بصور الأحلام ومخلوقات الخيال .

وبما يرر خلاف امرأى بين الدينيين والماديين حين يحثون في الملكات لفكرية التي تناط بها الأخلاق في كل تعريف من هذه التعريفات هل تناط حياة روحية من مصدر وراء الطبيعة وإناده ، أو هي موطلة فيه بوطائف الحياة الحسدية التي لا فرق بينه وبين الحيوان فيها غير فرق الدرجة و« الكيفية » ؟

مثال رأى الماديين يقرون به ريدلى Ridley صاحب كتاب الإنسان في حكم العلم Man The Verdict of Science ويستند فيه إلى آراء جماعة من علماء الكيمياء الحية وعلماء البيولوجى وعلماء الاجتماع ، وبوخره إلى بصعة أسطر هقول . « إن الإنسان وإن كان قد أبان عن قوى عقلية نفسية تعلو كثيرا على كل قوة بين عبها كائن حتى سوء لا يزال نوعا حيويا له قراته بالخللاق لسعى ولم ير الإغريق الأقدمون داعيا إلى فصل الإنسان عن جمهرة الكائنات الحية التى كانوا يشاهدونها حوهم . وقد أدخله أرسطر فى نطاق برامحه الحيوى مع سائر حيوان والست . وجاء ليوس (١٧٠٧ - ١٧٧٨) بعد قرون عدة فشر كتابه عن نظام الطبيعة سنة (١٧٣٥) وعده فيه نوع الإنسان بين أنواع الحيوان ، وقد عده فى طبعة الكتاب الأولى بين ذوات الأربع من نقرده والذب الرسيف وبوفون انرسى معاصر ليوس . وضع الإنسان فى المملكة الحيوية واجترأ على أن يمتثل سسته مع القرد إلى أصل واحد . وكان هذا أكثر مما يصدق لى عرف السلطة الدينية الفرنسية فحيروه بين البذ وبين تعديل رأيه . وهو تخيير لم يتعرض له ليوس فى البلاد السويدية وقد وضع الإنسان وضعه المحكم فى تعريف «الروولوجيين» فجمعوه بين أعلا الأحياء وهى ذوات المقاريات ، وجعلوه بين هذه فى دروتها وهى الحيوانات اللبون ، وأعلاها بعد ذب طبقة الأوائل التى تشمل النقرده والبسايس . وهم يقسمون الأوائل أقساما أعلاها القسم البشرى Homo وهو القسم الذى كان يتمى إليه بعض الأحياء ممن بقيت آثارهم فى حفائر الطبقات الأرضية ، ولكن الإنسان الحديث وحده هو الذى يصدق عليه اسم البشر الناطق أو الحيوان العارف .

• • •

فالماديون من البيولوجيين والروولوجيين والروولوجيين يرون أن الارتفاع بالإنسان إلى دروته المتقدمة فى تقسيمات الحيوان كاف لهم الفارق الكبير بينه وبين الأوائل Primates وبين هذه الأوائل وما دوسها من أقسام المقاريات وما دون المقاريات ، ولا حاجة - مع هذا الفارق فى الدرجة إلى فارق آخر من عالم وراء المادة والطبيعة ، وهو فارق الروح

وقد اشتهر في أواسط القرن العشرين علماء بيولوجيون من رحاب الدين المسيحيين يسمون كل درجة من درجات هذا التسلسل ، ولكنهم يقولون إن الفارق لا يهم ، لا على وجه واحد ، وهو أن الفوارق جميعا بين درجات الأحياء إنما ينتهي إلى التدرج بينها في الاستعداد للعقل والوجدان ، وإن أرفع درجة يرتق إليها الحيوان الأعجم لا تمنع أن تكون إعدادا لبنية الحيوانية أن تتلقى ما فوق ذلك من مميزات لعقل ولوجدان .

وأشهر انقائيلين هذا الرأي الأب سير تيلهارد دي شاردن Pierre Teilhard de chardin البيولوجي المتخصص لدراسة علم الحياة والحفريات وأحد اندى أسهموا في كشف إيمان بكن وألقوا الدروس العلمية في المعاهد الكبرى ، ومنها معهد اليسوعيين العلمى بـ القاهرة ، وكتبه « ظاهرة الإنسان » The Phenomenon of Man أحد الكتب العسمة الفلسفية التي عدت في أواسط القرن العشرين حصص معالم الطريق في اتجاه المكر حديث ، وقد سلم فيه تقسيات علم الحياة وعم لأحياء حرها حرها ثم عكَّب عليها سائلا « إذ كانت قصة الحياة لا تعدو أن تكون حركة إلى الوعي وراء نقاب من تركيب الأجهزة العصبوية ، فالنتيجة اللازمة حتما عند بلوغ التركيب عايته المقارنة للإنسان أن يتمثل هذا الاقتراب في ابتداء ظاهرة الأهمية المبيكولوجية وبروع ظاهرة الذكاء ومن ثم يلقي الضوء على « المفارقة الآدمية » نفسها ، لأننا قد شعرنا بحيرة إذ لاحظنا قلة الفارق لتشرىحى بين لكائن البشرى وبين من دونه من اشترىات على الرغم من سموه العقل في بعض مظاهره ، « ما هارق يقل حتى يكاد نتخطاه على الأقل من جانب أصوله ، ولكن أليس هذا يعنيه ما يسعى أن يتطرق ؟ »

ويجلبو هذا الرأي بالأمثلة المحسوسة علم آخر مندين ، هو الأستاذ روسل هاريسون الذى يقول في كتابه عن مصير الإنسان : « إننا لنعرف الموسيقى إذا عرفنا كل دقيقة وجبنة من الأخشاب والمعدن ولأوتار التي تدحل في تركيب النعود والقيثار والبيان . وبعض علماء الحياة يرايون تغذية الحيوان ، ويلاحظون أن لنعوصف تتأثر ببعض الأغذية فتتفص أو تزيد .. لاحظوا أن المارة التي يقل

المجير في غذائها تحمل صغارها ولا تعطف عليهم ، وإنه لحسن منهم أن يلاحظوا هذا ويصلوا منه إلى زيادة حصة الحيوان من ذلك الغذاء ، ولكم إذا جاوروا ذلك فقالوا إن عاطمة الأمومة هي مقدار معلوم من المجير فهم مخطئون ، وخطئهم في هذا الرأي كخضاً القائل أن سمات الموسيقى أخشاب وأوتار .

ويتبدى معنى الاستدلال المنطقي والعلمي ، إذن ، بهذا التفسير لمذهب العلوم المنطقي ، ارتقاء الحيوان والتشابه بين كل درجة من درجاته وما دونه وما فوقه في الاستعداد لأهنة لعقل والوجدان ، فلا بد أن يحدث ذلك للوصول إلى أوجها الحيواني الصالح للهوى كطوب الروح والوجدان . ويقلب الأمر على المادي فيصبح المادي وهو مسئول أن يقرر للمعتصين عليه من رجال الدين ، ماذا يكون معيار التقدم زيادة الوعي على درجات تنسب الترقى في تركيب السية العصبية ؟ وكيف يتأتى هذا الانتظام في الأداء وفي النتيجة إن لم يكن هناك طريق مرسوم لعناية مقدورة ؟ ..

ومن العلماء غير الدينيين من قنعت هذه الحجة بعض الأقدح ووافقت مذهبهم اقتدس « الديانة » من العلم أو « الديانة بلا وحى » كما يسمون في اصطلاحهم المتفق عليه Religion Without Revelation فقال عنهم من أعلامهم وهو السير جوليان هكسلي في تقديمه لكتاب ظهرة الإنسان : «إننا معشر بني آدم نحتوى في أنفسنا كل ما في الأرض من الإمكانيات الهائلة ، وفي مقدورنا أن نريد ما يتحقق منها على شريطة الأزياد من العلم والهمة » .

وتكاد هذه الأسطر أن تكون نسخة معوية ، من كلمات الختام التي انتهى إليها السير جوليان هكسلي في كتابه « قناني جديدة للخمرة جديدة » إذ يقول

« إن صورة الإنسانية المتطورة أعانتني على أن أرى من وجهة شدا على الأقل : أن الدين والعلم قد يتفقان ، وقد هدتني إلى مخارج من العصف والسكر يحق لنا أن نطلق عليها اسم الدين ، ولكنها كانت لولا ذلك حقيقة أن تكنت وتترك نسب منسيا هي هذه المثابة تعبت كيف يسهم العلم في تقدم الدين ، وقد قرر حدى في مقالة عن اللاأدرية كلاما في هذا الصدد كأنه عنى بدائه عن البرهان

فد « إن كل إنسان ينبغي أن يعطى مسية للإيمان الذى يؤمن به وإن عقيدتى
فى الإيمان بالامكانيات الإنسانية وأرجو أن أكون قد وفقت إلى شرح أسبابها » .

• • •

على أننا نحترق بأحدث الأقوال التى انتهى إليها علماء المدينين بآاء مزية العقل فى
الحيوان الناطق ، فلا نحسب أنهم قد استطاعوا أن يدعوا له مزية أقل من مزية
الروح فى ارتباطها بالحياة أو بالمؤثرات الحيوية على وظائف انسية للإنسانية على
الخصوص ، وربما كان تحويلهم على دلالة الجهار العصى فى الحيوان عامة وفى
الإنسان خاصة أشد من تحويل العلماء المندسين على دلالة الارتقاء إلى الملكات
الروحية بمقدار الارتقاء فى التراكيب الجسدية .

والأستد بأفلوف لمشهور بتجاربه الجسدية انفسية يقرب « كلما أحكم كيان
الجهار العصى فى سة الحيوان كان أقرب إلى التركيز ، وكان أقدر على المزيد من
التأثير بوظائفه العيب على التوزيع والتنظيم فى أعمال البسة كنها »

وقد أثبت رملاء بالسوف وتلاميذه أن هذه الحياة بعد توقف نص القلب مرهون
سلامة مخ الذى يحتفظ بسلامته بعد توقف لىض بحوسب دقائق ، وأن الوعى
الإنسانى له أثره حتى فى تأثير السموم القاتلة . .

جاء فى كتاب مسدث اعلم الذى طبع فى موسكو سنة ١٩٥٦

« من العقاقير السامة انقوية التسميم مادة البوناسيوم سيابيد . وهى سريعة
الفعل تقتل على لأثر بمقاديرها الكبيرة ، وتسمم جميع لخلانا لأن الخلال تحت
تأثيرها لا تتشرب الأكسجين ولا تتنفس . وإذا حققت به عروق قطعة ماتت على
الأثر كأنها أصيبت بصاعقة . وقد حققت به اثنتا عشرة قطعة ماتت منها
حلال بصع ثوان ، ولكن انست الباقية لم تتأثر كما عا حققت عدة ، وهى البست لى
حدثت بالأثير المعقم أثناء الحقن (١) . »

إلا أن سلطان الوعى على الإنسان قد بلغ درجته العليا ، ويعمل بالسوف فيما

رواه عنه الكتاب منه « عندما بلغ تصور لعالم الحيوان منزلة الإنسان مشأب صافة هامة جدا في جهاز انظم العصبية العليا . هي الحيوان تتمثل وقائع العالم على الأعم الأغلب بما تحدثه من المبهات التي تصل إلى الملح فتعش التنبه إلى خواص بظر والسمع ومناثر خواص الحيوانية ، وهذه أيضا هي المبهات التي تصل إليها عن طريق المؤثرات والأحاسيس والخواص من انعام الطبيعي أو انعام الاجتماعى الذى يحيط بنا ، ما عد المؤثرات التي ينمرد بها الإنسان وتؤدى له وظيفة التنبه لذلك التنبه »

ولا يدعى « للحيوان الناهق » ولا للحيوان دى الروح مربه أكبر من هذه المربه ، هي تكاد أن تقصر روح سلطان على الحسد كسلطان « ايوجا » المعروف عند ساد الهد ، وتكاد أن تجعل الأخلاق جميعا مسائل عقلية تلك التأثير الأكبر إن لم نقل التأثير المطلق - في كيان الإنسان وفيما هو أهل له من أهة العمل والوجدان .

مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ فِي عُلُومِ الْحَيَاةِ

إن العلم الطبيعي حذر في تقرير مدهمبه وأحكامه ، وأكثر ما يسنّيعه نفسه إذا وصل إلى شيء لم يثبت لديه كل الثبوت ، ولم ير من أمانة العلم كتابه وحده ، أن يعلن على أنه صرح وأنها موضع الشك فيه فابل للرفع والتوضيح بدليل متظر يذكر أسباب انتظاره . وكذلك فعل دارون عند إعلانه لنظريته في تحول الأنواع .

وإذا وازنا بين حذر العلم في الحكم على الماصي وحده في الحكم على المستقبل المحدود ، فهو في الحكم على المستقبل أحذر وأقرب إلى التردد بل إلى التوقف عن مجرد النظر إلا مشفوعا بالاعتذار . ويرى هذا الاختلاف بين حده من أحكام الماصي وحده من أحكام المستقبل فيما قرره عن فعل التطور أمس وفعل التطور عدا . . فإن علماء الشوء استباحوا لأنفسهم أن يرححوا وقوع تحول الأنواع وتقدم لإنسان جسدا وعقلا مند ألوف ، يسير ، ولكن لا تعلم أن واحدا مهم أبح نفسه أن يتأسنطور واحد سيحصل عدا لا محالة ، أو تحول واحد مرحح لا يقسه ترجيح مثله إلى النقص .

وعندهم في هذا تهييب مفهوم ، وهو أدن شيء على أن دلائل التطور الماصي لم تزد عند القائلين به على أن تكون بعض الطيور الراجعة ، ولم تنفع عند عالم حدير بصفة العلم أن تكون علم يقين .

عندهم أن العالم يرسم الطريق كما تكلم على الماصي ليس ، لا ، ولكنه ينشئ الطريق ويمشي فيه كلما أنشأ جرها منه حين يسير إلى المستقبل ، ولا يتسارى من يفتح طريقا ومن لا يريد عمه على رسم طريق .

إن كان بين علماء العصر من يحق له أن يعبر رأيا جارا عن مستقبل تتكوين الإنسان كما تمثله علم الحياة فذلك هو « البيونوجي » الكبير الأستاذ « مداور » Madawar صاحب جائزة نوبل للعلم الطبيعي (سنة ١٩٦٠) وصاحب اسحوث انعالية في تهيئة جسم الإنسان لقبول الأجسام العربة لتي تنرمها خلاياه على لرعم

من تقسيم الآدميين إلى فصائل وعائلات في تكوين ادم وأسجه الخلايا . فانه قد تبيّن له من تجارب يضيق بها الحصر أن الفرد الإنسان وحده لا تتكرر في مكونات بدنه ، وأن كل حكم على بيته من طريق التقسيم إلى فصائل وعائلات فهو تقسيم قابل للخطأ عند إحراء التجارب الطبية لقلل الأسجة ولأعضاء من بنية إن بنية وقد مثل هذا العالم الكبير أن ينقى محاصرات ريث Reith عن (سنة ١٩٥٩) فقال إنه لم يكن سماع به الادعاء أن ينقى هذه المحاصرات بعنوان مستقبل الإنسان لولا أنه عيّن مقترح عليه ، ولكنه على هذا لم ينفرد بالرأي في مسألة من مسائل البحث المقترح ولم يعلن رأياً واحداً قبل أن يراجع في موضوعه زملاءه الثقات في مسائل ذلك الموضوع على التخصيص ، وقد ذكرهم بأسمائهم في تمهيد المحاصرات . وبعد أن ذكر فكرة « البيولوجيين » الذين يحسبون أن تعدد التمدح الفردية قد يحول دون التوليد لإحرج انسل على نمط مقدور ، نصي يقول : « إن الأمر يدعو إلى استاؤل . هل يتأتى للإنسان أن يحصى متطور غذا كما تنطور بالأمس ، أو أن هناك أسساً تدعو إلى لطل بأن هذا انتطور قد بلغ أقصى مداه ؟ .. » وطبق الأستاذ يقب وحوه الضر ويحدد بينها حتى سمح به محاصراته وهو لم يحرم قط عصير محدود ، ، سوى أنه رجع بعض الفروض ولم يمس أن يذكر أنها فروض تحيط بها الشكوك والاحتمالات .

قال - مثلاً - إن لاحصاءات في بريطانيا اعظمى دلت على تكاثر نسبة موليد المذكور بعد الحروب ، وإن بعضهم فسّر ذلك بأن الطبيعة تعمل لتعويض النقص على عاداتها في كثير من الملاحظات ، فهو تفسير ليس بالعرب ، ولكنه قد يبطل اليقين به أن هذه الزيادة أيضاً قد شوهدت في أم لم تفقد أبنائها في الحرب ولم تكن من الأمم المقاتنة .

وقد بين الأستاذ بين طرائق الاحصاء ، ومنها طريقة المقارنة بين سنة وسنة ، وهي غير وافية بالمقارنة الدقيقة ، وبين طريقة اختيار طائفة من الرجال والنساء وتسجيل ما يحدث لهم على مدى الفترات الطوار ، كل عشرين أو ثلاثين سنة ، وقال إنها طريقة لم تكن ميسرة الوسائل قبل السنين الأخيرة ولكنها تيسرت الآن

لانتظام الاحصاء في شتى مظاهر الحياة ، ومن تسجيل نسبة الحسنيين وتسجيل معدل انعقود الزوجية ومن الذكر وسس الأنثى عند الزواج ، وتسجيل هذه النسب عند ولادة كل مولود أو مولودة ، وهذه الطريقة تفيد ما لا تصيده نظريته الأولى عند تعس تعويض المواليد للوفيات ، لأن نيل الوقت الذي تحدث فيه أوائل الموليد وتبين للفائزين بالاحصاء هل يريد العدد بزيادة الخصوبة العائنية أو بزيادة الوقت المحدود للاحصاء ؟

وم يتقل العالم البيولوجي بالارتياح عمدة التشاؤميين الذين يهيمون من كلمة الاحذار أو هبوط الاستعداد اخيوى ان النوع لإنسانى سيسحدر حتى ينقرض ، وقال إن العمدة « متحف من النقائص » فربما إذا استطعنا بالعناية أن نحفظ إلى اليوم بأناس كانوا ... بولا ذلك - قد أصبحوا أموات قبل عشر سنوات ، ونحن كمهم كانت الحال نعيش اليوم ولا نعيش قبل عشر سنوات ، كذلك يمكن أن تعصف نارلة من النوارل بالعقاقير التي تداوى بعض الأمراض ، فلا يكون مآل ذلك إلا أن الذين سيموتون عدا قد يموتون اليوم بدلاً من ذلك

ومن دوعى نصيب السوءة عن لمستقل أن التعبيرات المحتملة بين أفراد النسل أكثر جدا من التعبيرات التي تقع فعلا ، وأن خلافاً كبير من اشرفى اوقع قد يعى قبل ذلك افترض عشرت من الأفراد مختلفين كذلك الاختلاف أو أعدد وأخى

ومن أقدم لأسباب لمعومة عند الحيسين Geneticists لاحتالات التعبيرات المتعددة ما يسمى بقبابة القبيصة بين الصعيات وهى عملية يمكن أن تتم إذا كانت كلتا الصعيتين مماثلة للأخرى تماثلاً يميل بها إلى الامتزاح ثم عدة الامتزاح على أشكوك طارئة متدعة وربى جاء اليوم للى يستطيع فيه الكيميون والطبيعون الحيويون أن يحدثوا هذا الامتزاح ، وحليق هذا أن يدكروا أهمية النحون النصفى

Mutation وما يترتب على إمكان إحداثه من تغيير السسل بالانتخاب الصناعى ومشاهد من أصور جرثيم « البكريا » أن لها خاصية عجيبة وهى خاصية الاحتياط لمعالجه الأضرار التي قد تطرأ في المستقبل ، وربما وجدت في اباى خاصة كهده يدس عليها بحجة هريق منهم من الأوثنة والعسل المنتشرة ، وكمون ضرب من المناعة

برود حلاياهم الدسنة مثل ذلك الاحتياط لمقاومة آفات دستقل وقد يدهش
السامع - بعد كل ما عرف عن الوراثة - أن يعلم أنه لم توجد بعد فكرة
وافية عن الأمور التي تفعل والأمور التي تجنب لتحسين نتائج الحيوان بالانتخاب
الصاعى ..

ويؤخذ من استطراد العالم البيولوجى في أمثال هذه العوامل الحسية أن انعلم بها
يفتح آفاقا من فروص التغييرات المحتملة يقصر عنها رسع السوء والتوقع ، وأن
لاستعانة بالمعارف لمسحذته تمكن الإنسان من معرفة وسائل التحسين في التربية
ووسائل تقاء الالمحطاط فيها ، ولكن هذه الوسائل لم تصبىط بعد - على
يقين من نتائجها

ولكن ترقية النسل لا تعتمد كلها على صسط هذه الوسائل الحسية ، لأن
هناك وسائل التفكير أو وسائل الخصائص التي قد تستقل بالورثة من الدماغ
قال الأستاذ مساوار في محاضرته الأخيرة « إنى في هذه محاصرة لأخرة
سأبحث في الكائنات البشرية عن وسيلة جديدة غير الوسيلة الحسية -
للورثة وانتطور مسبة على خصائص وحركات مصدرها الدماغ

« وإن وجود هذه الوسيلة أمر تعرفونه جيد المعرفة .. فلم يكن البيولوجيون هم
أول من أفصى إلى سراع إلى التصديق بأن لكائنات بشرية ذات أدمغة ، وأن
الأدمغة تحدث فروقا شتى ، وأن الإنسان قادر على أن يؤثر في الأعقاب الآتية
بوسيلة غير الوسيلة الحسية ، وإن كثيرا مما قرأت في أقول البيولوجيين يلوح عليه أنه
لا يفيدنا شئ يزيد على ما ذكرت لكم ، وإنى لأحس أن البيولوجى مطلب بأن
يسهم بصيب يساعد على فهم الأصول البعيدة التي تنفرع عنها الأخلاق وصروب
النسوك - وهو ما أحاوله الآن ولا بد أن تأتي هذه المحاولة مستندة إلى التفكير
الصلب لا إلى التفكير «الناعم» .. وأحس بذلك تفكيرا يعرف له حبر واقع
وتدرك له تفصيلات بيئة ، مقابلا للتفكير الذى يجد متفحسه في الكلمات الموقفة
والعبارات المصححة الشعرية

« وأردني أهاب لوصوح الير إذا عبرت عن ذلك مثال محسوس ، وأسألكم أن تعيدوا لي الذكر ذلك الفارق الهام بين الصندوق العزف وإظهار الحاكى « جرامفون » .

« فالصندوق العزف جهاز يحتوي دنا أر أكثر من قاذ من قواب إخراجفون يعيد لسمع كل ما أودعه عند لمس زر معلوم ، واسمى لمس ذلك الزر بالبعث أو المحرص .. وهو باعث مقصور على القالب الذى يؤدى إلى سماعه ، فهو مؤثر واحد يأتى بأمر واحد بينهما هذه العلاقة المتبدلة . وبى أبعث الصندوق بلمس الزر - أى زر - إلى إحداث نعمة موسيقية ، ولكنى إذا اخترت زرا ممينا بالبعث ها بدعوه إلى إحداث نعمة دون سائر النعمات الموسيقية ، والتوجيهات الموسيقية فى هذه الحالة حرة من الصندوق وليس حرة من البيئة المحيطة به وكل ذلك راجع إلى تركيب للصندوق فليس صعب على الزر توجيهها للصندوق فى أداء نعماته الموسيقية

» . ولآن نقابل بين هذا وبين عمل إخراجفون أوتية أداة أخرى تؤدى ما لنعمت الموسيقية :

إن لدى قواب موسيقية أقوم بتحريك بعض لمبات وأضع القاذ على إخراجفون والقالب منقول إليه من البيئة المحيطة . ذلك باعث ك باعث الصندوق العازف إلى أداء الأنعام الموسيقية ، ولكنه يضيف إلى الباعث هناك شيئا أكثر من ذلك . وهو الخطوط المرسومة لتي تمر بها لإبرة تضغط منها الأنعام المؤداة ، وليس لدى إخراجفون مصدر للتوجيهات الموسيقية وإنما هو القالب الذى جاء إلى إخراجفون من البيئة الخارجية ، فكانت علاقته به - إذن - علاقة تعميمية ، لأنى - بمعنى من المعانى - قد علمته كيف يؤدى النعم المسموع .

» .. ونحن فى الحالتين صنعنا الصندوق وصنعنا إخراجفون وأعدنا كلا منهما للعمل الذى يؤده ، ولكن هذه الحقيقة لا تقدم ولا تؤخر فى معنى لاختلاف بين عمل هذه الأداة وعمل تلك . فلذلك هذا لاختلاف فيما يلى من المقارنات

» .. منذ عشر سنوات اتجه بيولوجيون إلى العلم بأن الأجهزة الحية العليا أشبه

بالصدوق العرف منها «الخرافون» ، وأن كل ما كنا نحسه من قبل حركات تعليمية هو أن الواقع حركات تنبئية ليس إلا . أى أن تحريك الكائن الحي يحدث شئ هو نتيجة تركيبه وليس - كما كان مطبوعا - نتيجة شئ من الخارج . فليست الآثار المستمرة في الجهاز الحي خطوط مرسومة على قالب يديره ذلك الجهاز ، ولكنها آثار جينية مودعة في الصعبيات وخوائص الخلايا .

«واسمحوا لي أن أبين بعض الأمثلة لهذه الحقيقة

«فأقدم لأمثلة وأشيعها مثل التعبير الذى يعبرى جمهورا من الناس عرص له التطور، فكيف يصعب البواعث التى تفعل فعل التطور في الأجهزة الحية؟.. إن النظرية اللاماركية التى تقول بوراثة الصفات المكتسبة ، هى على أعمها تنظر إلى البواعث التعليمية وتعى أن البيئة على نحو من الأنحاء قدرة على إعطاء تأثيرات تعليمية للأجهزة الحية ، وإن هذه التأثيرات إذا سرت في البيئة سريانا حسا أمكن أن تنتقل بالوراثة إلى أعقابها .. فالحدود الذى طالما صرب به المثل لتعبر هذه الملاحظة ، يستمد قوة في دراعيه من طرق الحديد فتؤثر هذه القوة في الخلايا التى تنشئ بدورها نسوية وتنقل من ثم إلى أبنائه ، فيولد هؤلاء الأبناء وفيهم استعداد لتربية الأذرع القوية . ولست أفهم في مناقشة التحارب التى تكررت لامتحان العوامل اللاماركية . وحسى أن أجمعها فأقول إنها جميعا أسعرت عن نتائج غير لاماركية ، ودلت على مؤثرات تنبئية وليست تعليمية .

«ومثل آخر من الأمثلة الشائعة هو مثل الكتريا إذا أعطيت طعاما غير طعامها المألوف أو تعرضت لعقار مصر نفوامها ، فإنها في هذه الحالة قد توفى بين قوامها وبين الطعام الحديد أو تريل صرر العقار وتلقى مفعوله ، وقد سميت هذه العملية ربما باسم تدرس الكتريا على عمار أنها عملية قادت لكتريا إلى تعلم طريقة جديدة لتوليد الخثر من طعامها . ولكنك سمعة لم تلت طويلا حتى تبين خطؤها وتبين أن هذه العملية وسيلة تنبئية وليست بنوسية اتعليمية . فليس في وسع لكتريا أن تشئ حميرة عبر التى هى مفعولة على إشائها ، وكل ما حدث عند تعبير الطعام أنه به الاستعداد الذى لم يكن له منه قبل ذلك ، وهو استعداد كامن في التركيب وليس بالتعليم المستفاد من فعل الطعام أو العقار

« ويصدق هذا على تطور الحيوان - فقد كثر الخلد وما بين أنصار القول بالتشبيه وأنصار القول بالتعظيم ، إذ كان الأولون يرون أن كل تصور غامض هو شيء كمن مطرب هناك ، وكان المتطرفون منهم - وطلما تعرضوا للسخرية - يرون أن بذرة النسل إنما هي إنسان صغير أما الآخرون فعندهم أن العورص التي تعمل في تكوين الجنين إنما هي بواعث تعرض له في حوله وليس الحقيقة وسط بين هذين لطرفين ، فالعوامل الحسية تتم لأنها كاملة هناك ولكن مستقبلها رهين بالعوامل الخارجية عنها

« وإلى نحو ستين كنت تشعر أن صرا من النويتم في أجهزة الحيوانات العيب بفعل البيئة على اعتبارها موجهها أو معيها ، على النحو الذي نشاهد عند تلقيح الأنسجة بمادة خارجية ، يؤدي إلى إنشاء السية ددة بروتينية خاصة ، أغلب ما يكون عملها أن تحول دون تلك المدد والاصرار بالنسبة ، مما يكون له أثره في لوقاية من عدوى الأمراض .

ومع اليقظة التي توحى بأن هذه العملية تعليمية ، أخذ كثيرون من البيولوجيين يشكون في ذلك ويعتقدون أنها لا تعدو أن تكون نسبية في جوهرها ويعود إلى المصندوق العارف مرة أخرى .

« وبعد .. فأى ظفر يتاح لنا لو أمكن السية أن تتلقى التعليم من البيئة وأن نجعل هذه البيئة قادرة على أن تعلمها ولم يكن قصارى قدرتها أن تنبه ما فيها ؟ .. ربما قال لنا رائد قدم إلى هذا الكون من كون غريب عنه قبل بضعة ملايين من السنين ، نعم .. به لظفر عظيم ، وإننى لألح سره وأعلم أن هذا السر يحل مسألة التوفيق والموافقة بين الحي والبيئة ، وبعض الكائنات الحية مهياة بسر والتطور على صورة أوفى وأسرع من صورة التطور بعض الانتخاب الطبيعي ، لولا أنها صعبة جدا وأنها ليست بما يستطيع ..

« لا أنكم تعلمون أنها استطاعت ، وأن هالك جهازها قادرا لأن يتلقى التعليمات من الخارج وهو جهاز الدماغ
« وبتا لعلم لتقليل من أسرار هذه المسألة ، وهو ما نفهم منه مقدار تعقده

و سنالك وظائفها . فإن تطور الدماغ قد كان آية رائعة في هذا الوجود ، وهو - ولا ريب - أعظم الآيات بعد آية الحياة نفسها ..

« على أنى أض أن الدماغ ، بما نشأ في مبدأ أمره كذريعة للتنبه ، وإن اسلوك الغريزي إغا هو ذلك السلوك الذي تستجيب به اسية لتنبه المؤثرات الخارجية ، فإذا لمحت دجاجة هرمومات الذكر أخذت هذه الدجاجة في سلوك كسلوك الذبث لم يكن أصله بعيدا من تكويها .

« ولكن وظائف الدماغ العليا تستجيب للمؤثرات التعميمية فحين نتعلم ...

« . . . ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يسرى من جيل إلى جيل كما تسرى الخطرات المتسلسلة التي تبدأ بكتابة خطاب إلى أحد الناس ، وتساءله أن يبعث به إلى غيره ويوصي ذلك الغير بأن يبعث به كذلك إلى آخر وآخر إلى غاية الشوط المبسور ، فيتعلم الأب ويعلم ، به كيف يعلم حميده واس حميده وهكذا ، ، على مدى الأجيال .

« ومن المهم جدا أن نميز بين أربعة أدوار في تطور الدماغ ، أوها الجهاز العصبي وقد نشأ لتنبه السبية . ثم دور الدماغ وفيه تنلق لكائنات اسية التعميم من الخارج ، ثم دور الوراثة من طريق غير الطرق الحسية يأتي من قدرة لدماغ الدقيق التركيب على شئ أكثر من تلقى التعليم وهو تسليمه إلى آخري وإنه ليعمل خاص بالبرع الإسائي لعله قام بعمله اهم من خمسمائة ألف سنة .. أم الدور الرابع فهو شديد الشبه بالدور المتقدم ولكنه لا يماثله تمام المائنة ، ونعني به دور انتطور لدى يشمل الجماعة كلها وقد تصاعف عمله منذ مائتي سنة .

وسأل بعد هذا ما الذي يستفيد مما تقدم ؟ فنقول إن الاغترار بالمشاهات خطر لأنه يخص من أثر لاحتلافات فاشابهة بين تطور لفرد وتطور الجماعة لا يجعلها عمية واحدة في محرى المحوادث ولا في عواقبها فصناعة الحداد تورث ولا شك ، ولكن وراثتها من طريق الناسسلات والصيغيات أو ما نسميه بالطرق الحسية غير مستطاعة .. وفائدة تمييز بين التطور الفردي وتطور الجماعة أن بعدد عن - هذه فكره القواين الطبيعية التي تعمل في الحالتين على سبه التغيرات الحسية ، أو

الفكرة التي تقول لنا إن الجماعة لابد أن توجد وأن تموت كما يتعاقب الموت والولادة
على الكائنات الحية ، أو لمكرية التي توحى إلينا نركض الجهد في تحسين جماعة اعتمادا
على أن الطبيعة أحر وأدري .

* * *

« ونحن إذن نستطيع أن نهدد الطبيعة ، ولكن استطاعتها هذه مرهونة بمقدار
ما نملك من وسائل لغوص على أسرارها وخفائها ومثابرتها على زيادة محصولها من
العلم بما يجري فيها . ولست أقول إن الإنسان مدفوع بغريزة يحفزه إلى الكشف
والاستطلاع وإيه مسخر أبد في طلب الحقيقة ، من الحيوان أيضا مرود ما يمكن
أن يسمى على الاحمال حنا للتطبع أو التجسس ، ولكن هذه لغريزة ورس بلغت
غايها من الإحكام والقوة لا يفيدا ولا يسعى أن يكون مدفوعين دفعا إلى الاستطلاع ،
وإن أولئك الذين يستطون بنا قوايهم عن مقاصد طبيعة يقاربون حدود الخطر
والوبال . وما علي إلا أن نذكر عاقبة الدعوى التي رعم أصحابها أن الإنسان مرود
أند بنزعة لنصن والقتال . ونحن نعالل بينا وبين أنواع الحيوانات الأخرى ،
هري على لتحقيق أن الفارق بينا وبينها في هذه الخصلة هو أن الأجراس التي تدق
لنا دقات انتبيه إنما هي كأجراس الماشية نجد الألب معلقة بأعناقها فلا لوم على
أحد سوانا إذا لم نسمع منها ما يرضينا » .

* * *

هذه خلاصة مقتبسة من كلام لعالم ليونوحى اقتباسا تحريفا فيه تصوير معناه وم
نترجم حروف بصوصه ، ونحمل هذا المعنى أن مستنقش الإنسان الطبيعي مستكن في
كفيه وأنه يملك وسائل التهديد الاحتياجي ولكنه لا يقدر على إحداث أثر لم تكن
مولداته مطوية في استعداده ، وإن الأجراس التي تدق له دقات الخطر على حياته
الجمعية أو انفرادية هي نفسها حرة من تلك الحياة ، وكذلك العلاج الذي يحدن به
على الخطر بعد الانتبه إليه إنما هو من عقار أرضه ووصفات طبه .

دواؤك منك وما تشعر ودواؤك منك وما تفكر

* * *

وقبل الأستاذ مداوار خمس عشرة سنة ، عند نهاية الحرب العظمى تقدم للاحتفاء على هذا السؤال عن مستقبل الإنسان علم بيولوجى من المؤمنين بالشؤون والتطور ، يصارع مداوار في منزلته العلمية وشهرته العالمية فكتب عن القدر الإنسانى Human Destiny سلسلة من السحوت الحديثة على مذهب غير مذهب ريميه المتأخر ، لأنه يفترض عادة المرسومة للتطور ، ويرد مقاصده جميعا إلى عناية إلهية تتلخص حكمتها الهدية في أنها « تريد » ولكننا تعلم الخلل أن تريد لنفسها وأن ترقى بالزيادة على حسب جهوده ، مع الهداية التي تنهها ولكنها لا تنهها إلا لكي نعينها بالأهام على أن نعمل معها ونستدك سبلها

ومؤلف كتاب القدر الإنسانى هو العالم البيولوجى الحليل بيكوت دى نوى De Noy الذي يقول ان استمرار الشئ والقول بالمصادفة معارضة لا تعقل ، وهو يشبه محارى الشئ في الكون محدود الحيرة التي تنصب من فوق الحبل إلى مستقره في الأودية ، فتمر بالصخور والرمال وتلتقى أو تفتقر ونحس معها ألوانا من الرواسب والطوائف تحالف بينها آخر الأمر حتى كأنها يبيع لم تصدر من أصل واحد ولم تخرج على سنة واحدة ، ولواقع أنها ليست كذلك وأنها في أصلها من بحيرة واحدة وفي حركتها خاضعة لقوة واحدة هي قوة الحاذية .

وعند « دى نوى » أن نظرية لامارك عن لتوفيق بين السية والبيئة ، ونظرية دارون عن الانتخاب الطبيعي ، ونظرية التحول الفجائى في رأى بودين دى فرى Nudin - De Vries - كتب صالحة للمساهمة في تفسير عومل الشئ والتطور .

قال « وبعد مرة أخرى أب التطور لن يكون مفهوما إلا إذا سمنا أنه خاضع لعناية ، وأنها عناية بعيدة مقدورة » .

ثم ختم بحوثة قائلا : « إن بعضهم قد يرى أننا لا نزال على مسافة بعيدة من اليوم الذي يصبح فيه الإنسان وقد تطور التطور الذي يجمعه أهلا لأن يشعر بضميره ، وألا يكون كل حقه في المعاملة أن يعامل كما يعامل النظم الفاسد ، وربما صح هذا ولكنه - إذا صح كان خفيف أن يصبح سببا للاتحاد بجهوده إن تلت الأمة

« وإن الإنسان المتطور قد بلغ حالة من نمو الصمير تيسر له أن يوسع أفق النظر وأن يلمح الدور العظيم الذي يصططلع به في الحجاز عديت التطور ، ليس الإنسان كذلك خيول الأعمى الذي يعمل في أعماق البحر ولا يدري أنه يبي بعمله حرية مرحابة سوف تعمر بالكنائس التي هي أصلح منه وأعلى . لأن الإنسان يعمل وهو يعلم أنه رائد لسلسلة المقبلة التي ستكون على وجه من الوجوه وليدة معبده وجهده . وعن كل إنسان أن يذكر أن القانون قد كان ، وصيقي كما كان ، أن يناضل وأن يصلح لم يهدأ لأنه تحول من ميدان المادى إلى ميدان الروح . وعليه ألا يسي أن كرامته باعتباره كائنا آدميا ، يسمى أن تصدر من جهاده في تحرير نفسه ، وأن يتفاد في ذلك الجهد لأعمق البواعث من حرية وجدانه . ولا يسي أبدا أن الشرارة للإله كمة في تلك القرارة ، في قراراته دون غيره ، وأنه هو حر قادر على أن يهملها وأن يفتنه قدرته على أن يقترب من الله وأن يعرف عن غيرته على العمل مع الله والعمل في سبيل الله . »

* * *

ولقد آل تطور الإنسان عند غير بيولوجيين إلى تصور الإنسان الصانع وقيام الصناعات الكبرى مقدم الصناعات لصغيرة التي بدأت منذ مئات القرون ، فحمت الإنسان سيد الخليفة حين جعله قادرا على العمل مدته وختراع الآلة لمصنوعة لانجار عمله . واستعمل الصناعة الكبرى بأبسط المصانع البشرية فعل الآلة الحجرية قبل مئات العرون بيد الإنسان لأول ، إذ لم تكن له قدرة على حيوان الأعجم غير تلك الآلة .

ولا يخفى أن أحدا غير عن هذا الرأي معبرا أدنى إلى أنهم من تمييز الأستاذ رسل هريسون في كتابه « ماذا يكون الإنسان » . فإنه ترك لغة « نابي » الحديثة لغزة اللثة الصناعية بين المروص بصرحة وخصوص مهمة والمقالات من هذا والمعارضات من هناك ، ووضع أمل التطور حيث يسمى أن يوضع إن كان له موضع على الإطلاق ، وحدث هو موضعه في « الشخصية الإنسانية »

فلا مستقبل للإنسان إن لم يكن مستقبلا لشخصيته تكاملة ، ولا نظور منه

الشخصية إن لم تكن شخصية « ذات جواب » ولم تكن جوانبها براء من النفس
والخيل ..

إن الشخصية الإنسانية عاطفة ، وعقل ، وصمير ، وليست مجرد أعصاب
ووظائف وخلايا وأعصاب ومعنى تطور الإنسان في الدهن أن تتم له هذه
الشخصية بعد ما بنت له بدورها مع أطواره الناصية ، وليس في الواقع ما يجمع
« لشخصية الإنسانية » أن تتحقق كي تحققت في الدهن ، فكرة قابلة للتنام .

عَوْدٌ عَلَى بَدْءٍ

بعد هذا الشوط في عرض المذهب والآراء عن الإنسان سأل على ثقة من
الاجواب :

هل صحيح أن القرآن يلقي بالإنسان عربيا مقطوعا في القرن العشرين؟

والاجواب الذي لا تردد فيه ، أن القرآن على النقيض من ذلك -
صنع الإنسان في موضعه الذي يتطلبه ، فلا تسعده عقدة أخرى أصبح له
وأصلح من عقيدة القرآن ، لأن عصر العلامات لعالمية لا يطلب « مرطب » أصح
وأصلح من الإنسان الذي يؤمن بالأسرة الإنسانية ، ويستكر أدبيل العصبية
ومفاحر العصرية يعترف بفصل واحد متفق عليه في كل أرض وبين كل عشيرة
آدمية . وهو فصل الإحسان في العمل وحنان الإساءة . وليس هذا لعصر حق
على سبه أصح وأصلح من حق الشعور بالمسؤولية والنهوض بأمانة التكليف
والاحتكام إلى لعقل في كل ما يسعه العقل ، ثم اطمئن الصمير إلى الخير فيما خفي
عليه من شئون الغيب المجهول ، ولا بد في كل عصر حديث أو قديم من غيب مجهول .

إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذي ليس من إنسان أصح منه وأصلح
لزمانه ، وهذا أمر هذا الإنسان نافقه وبسبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة
الإنسانية من الإيمان برب واحد بعالمين ، وبنبوة تختم النبوات . . بعد الإيمان بهذا
الإله الواحد ، لتسلمه إن عقده وصميره ، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دياه
بما يدعو إليه قوام الروح والحسد وطيب الحياة في الدين والآخرة .

وإد كان هذا هو إنسان القرآن بحرفه ومعناه ، فلا حاجة « سافد المصنف إلى
حفظ كبير من الترفع لينظر من على أي أولئك المتعاملين المتوقفين .. أولئك الذين
يرعمون أنهم قابلوا بين العقائد ، مخرجو منها بمقطع الرأي وهذا هم مقطع الرأي
هذا أن القرآن نسخة مكررة بل مشوهة - من هذه الديانة أو تلك نديانه ،

وأنه لم يحدث بعده حديدا في عدم الروح وعالم العقيدة وهو الذي هدى النعم في أمر
 الإله وفي أمر لبوة وفي أمر الإنسان إلى هذا الصبح المبين . وما من بقية في لباب
 العقيدة بعد هذا الحديد الدائم في أمر حقيقة الإلهية وأمر الرسالة وهدية ، وأمر
 الكائن الحي المميز بين مخلوقات الله أجمعين . وهو هذا الإنسان لدى تحاطبه
 الأديان .

• • •

وقد رأينا مدى الموافقة بين عدد الحكمة وآيات القرآن في كثير من عرصاه أو
 أشرا إليه فيما تقدم وقد نرى - أهم من ذلك - أن آيات القرآن
 تفسح للعقل الإنساني كل طريق من طرق البحث والتأمل ، فلا تنصده عن طريق
 قط يترقب منه معرفة باعثة توافق المعارف البشعة أو تناقضها ، فـ من طريق يسلكه
 الباحث الصادق هو طريق معنو أمامه يحكم من أحكام القرآن ، إلا أن يكون
 لطريق لدى لا هتحة يوم دين يدعو إلى الله • وهو طريق الإسعاد

فصيا تقدم من شروح حكماء الإسلام ما هو أعجب من فروص الشونيين بعد
 القرن التاسع عشر عن الأحياء ودرجاتها من الهيمنة إلى انفراد إلى الإنسان ،
 وشوشين المحدثين آراء قد يستمدون تأييدها لو شاءوا - من
 آيات قرآنية فسرها بعضا تفسيراً يتقنه القائلون تسرع البقاء ونقاء الأصح وتتابع
 الأطوار :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ نَعَصَهُمْ لَغَفَّضَ الْأَرْضُ ﴾

(سورة البقرة آية ٢٥١)

﴿ فَأَمَّا الْأَرْضُ فَبَنُوحٍ حَمَاءٌ وَأَمَّا مَا يَمْعُ النَّاسُ فِيمَكُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(سورة الرعد آية ١٧)

(سورة نوح آية ١٧)

﴿ وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ﴾

فهل من ابواب على المؤمن بالقرآن أن يتلمس فيه تأمل لأصحاب
 الطريقت والفرص في كل عصر يصحرون فيه ؟ نقول « كلا ولا ديب » لأش
 قد تثبت كتب أو بعضها ، وقد يطرأ عليها نقص أو التعديل بين حين وحين ، ولكن
 لقرآن يعمل عمل الدين الصالح ، كما سمح للعقل أن يتلمس الحقيقة مع كل حرص من
 الفروض وتركه أن يسبى إلى هبة شوصه مستولا عن سبحة عمله وعما يهيد أو لا

بعد من جهوده ومحاولاته ، فليس من عمل الدين أن يتعقب هذه الفروض والنظريات في معرض الجدل لتأييد تفسير أو حذلاب تأويل ، وحسبه أنه يملئ للعقل في عمه ولا يصده عن مسيه . فهذا هو الواقع ، منصوب بين العقيدة والبحث وبين الإيمان والتفكير ..

فإذا أخطأ من يقحم القرآن في تأييد النظرية العلمية قبل ثبوتها ، فثمة في الخطأ من يقحم القرآن في تحريمها وهي بين النظم والرحمان ، وبين الأحد والورد ، في انتصار الرهان الحسم من بينات العقل أو مشاهدات العيان .

وقد أخطأ هذا خطأ جهلاء لدين ولعلم الدين حرما القول بدوران لأرض . وهو أنت من وجودهم على ظهورهم . وأخطأ مثلهم من حرما القول بجرائم الويد وهي : - فيما تبين بعد ذلك - إحدى حقائق العيان

ومذهب التطور حاصه مما يتعق تحول الأنواع - م يشك بالدين القاطع ، لأن أنصاره م يدكروا حتى لأن حيوانا واحدا تحول من نوع إلى نوع بفعل الانتخاب الطبيعي . أو بفعل تنازع البقاء وبقاء الأصالح . ولكن بطلان القول بهذا الانتخاب لم يشك كذلك بالدليل القاطع على وجه من الوجوه . وليس في القرآن ما يوحي عينا أن نقول ببطلان الانتخاب لطبيعي . لأن خلق الإنسان من الطين لا يني التحول إلى غير طين ولا يوجب علينا القول بكيفية الخلق من الطين على صورة من صور التركيب ، وإنما نعم من القرآن أن الله بدأ خلق الإنسان من طين ..

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (سورة السجدة آية ٨)

وفي آية أخرى : « مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ » فلا اختلاف بين هذا وبين التحول الذي يشك - إذ ثبت - على وجه من الوجوه

ومذهب المشوك - مع سائر العلوم الحديثة - يفون لنا عن المستقبل البعيد أصعاف ما قانه لنا عن الماضي البعيد . هل يتطور الإنسان في مستقبل مع قوايين لوراثة العنمية أو لا يتطور ؟ وهل يعرف انعماء مسلكه طريق التطور أو لا يعلمون ؟

من رجع إلى القرآن ليعلم حكمه في التطور المقبل وجده على العهد به يحل للعقل ولا يصده عن طريق يرجى منه النفاذ إلى علم مجهول . وفيما تقدم كلام نفلناه عن أهل العلوم « المختصة » بتطور الأحياء وقوانين التوريث ، نلفت إليه فنعلم أن قوانين « التاسلات والصبغيات » في الأرحام لم تنبئهم بخبر يهدي إلى مصير معلوم ، وأثبت ما عندهم من نيا أن الغد كله مرهون بميراث العقل والمشية والإيمان ...

فالذي يعرفه علماء الأجنة وقوانين الوراثة غير قليل بالنظر إلى ما كان معروفا من ذلك قبل مائة سنة ، ولكنهم - كثر أو قل - لا يتفهمون في تنظيم عمل الوراثة بالانتخاب أو اللقاح في ظلمات الأرحام ، وإنما يتفهمون أن يحسنوا هداية « الإنسانية » إلى خير ما تستطيعه العقول المميزة إذا صدقت النية على حب الخير ، وأجمعت العزم على استخلاص الذرية المختارة بالتعليم والإرشاد ، وجعلت مسألة التقدم وه بقاء الأصلح « مسألة فهم واعتقاد أدنى إلى البلاغ من لقاح الأصلاب والأرحام .

ونخال أن القرن العشرين لم يكن في غنى عن هذه الهداية من علماء النشوء ، ولكنها الهداية التي تعلمها من القرآن من تعلم (أن صلاح الإنسان فكر وأمانة وإيمان) و (أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)

ونعدها كلمات موجزة في ختام هذه الصفات عن الإنسان في عقيدة القرآن وفي عقائد الأقدمين والمحدثين :

إن القرن العشرين لم يضع الإنسان في موضع أكرم له وأصدق في وصفه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسماء أنه المخلوق المميز الذي يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه .

وموضعه بين آدم وحواء أنهم إخوة من عشيرة واحدة : أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويحسب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما اتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله :

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَنْ كَأَنَّا

(سورة البقرة آية ١٤١)

﴿ صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ ﴾

فهرس

صفحة

تمهيد ٤

الكتاب الأول : الإنسان في القرآن

المخلوق المسئول ١٠

الكائن المكلف ١٦

روح وجسد ٢٣

النفس ٢٧

الأمانة ٣٢

التكليف والحرية ٣٩

أسرة واحدة ٤٥

آدم ٥٢

الكتاب الثاني : الإنسان في مذهب العلم والفكر

عمر الإنسان ٥٦

الإنسان ومذهب التطور ٦٥

التطور قبل مذهب التطور ٧٧

أثر مذهب النشوء في الغرب ٨٥

مذهب التطور في الشرق العربي ٩٢

الدين ومذهب دارون ١١٦

سلسلة الخلق العظمى ١٢٢

الإنسان في علم الحيوان ولى علوم الأجناس البشرية ١٣٠

الإنسان في علوم النفس والأخلاق ١٤٠

مستقبل الإنسان في علوم الأحياء ١٤٨

عود على بدء ١٦٠

مؤلفات عماد الأديب العربي

الكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

- | | | |
|--|---------------------------------------|---|
| ١ - الله . | ٢٧ - سارة . | ٥٢ - يوميات (الجزء الأول) . |
| ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء . | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية . | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) . |
| ٣ - مطلع النور أو طواف الجنة المحمدية . | ٢٩ - الإسلام في القرن العشرين . | ٥٥ - عالم السلود والقيود . |
| ٤ - عبقرية محمد ﷺ . | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام . | ٥٦ - مع حائل الجزيرة العربية . |
| ٥ - عبقرية عمر . | ٣١ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه . | ٥٧ - مواقف وقضايا في الأدب والفلسفة . |
| ٦ - عبقرية الإمام علي بن أبي طالب . | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية . | ٥٨ - دراسات في المقادير الأدبية والاجتماعية . |
| ٧ - عبقرية خالد . | ٣٣ - الفلسفة القرآنية . | ٥٩ - آراء في الأدب والفنون . |
| ٨ - حياة المسيح . | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام . | ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب . |
| ٩ - ذو النورين عثمان بن عفان . | ٣٥ - أثر العرب في الحضارة الأوروبية . | ٦١ - خواطر في الفن والفن . |
| ١٠ - عمرو بن قنابس . | ٣٦ - الثقافة العربية . | ٦٢ - دين وقرن وفلسفة . |
| ١١ - معاوية بن أبي سفيان . | ٣٧ - اللغة الشاعرة . | ٦٣ - فنون وشجون . |
| ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح . | ٣٨ - شعراء مصر وبناتها . | ٦٤ - قيم ومعايير . |
| ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي . | ٣٩ - أشعار مستعمات في اللغة والأدب . | ٦٥ - الديوان في الأدب والنقد . |
| ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون . | ٤٠ - حياة قلم . | ٦٦ - عهد القلم . |
| ١٥ - هذه الشجرة . | ٤١ - خلاصة أيومية والتشاور . | ٦٧ - رجوع ومغود . |
| ١٦ - إبليس . | ٤٢ - منهج ذوي العافيت . | ٦٨ - ديوان لحظة للعباس . |
| ١٧ - جما الفساحك الضحك . | ٤٣ - لا شيوعية ولا استعمار . | ٦٩ - ديوان وهج لقطيرة . |
| ١٨ - أبو نولس . | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية . | ٧٠ - ديوان أشباح الأصيل . |
| ١٩ - الإنسان في القرآن . | ٤٥ - الصهيونية العالمية . | ٧١ - ديوان وحى الأرحمن . |
| ٢٠ - المرأة في القرآن . | ٤٦ - أسوان . | ٧٢ - ديوان حنية الكروان . |
| ٢١ - هجرى الإصلاح وتعلم الإمام محمد عبده . | ٤٧ - ثا . | ٧٣ - ديوان عابر سبيل . |
| ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة . | ٤٨ - عبقرية العتيق . | ٧٤ - ديوان أحاسير مغرب . |
| ٢٣ - روح عظيم للمهاجر غاندي . | ٤٩ - لصديقة بنت العتيق . | ٧٥ - ديوان بعد الأناصير . |
| ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي . | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية . | ٧٦ - حرائر وشياطين . |
| ٢٥ - ربيعة أبي العلاء . | ٥١ - جميع الأحياء . | ٧٧ - ديوان أشجان الليل . |
| ٢٦ - رجال عرفتهم . | ٥٢ - الحكم المطلق . | ٧٨ - ديوان من قراوين . |
| | | ٧٩ - هنر في القرآن . |
| | | ٨٠ - ألهون للشعوب . |
| | | ٨١ - لافرن العشرون ما كان وما سيكون . |
| | | ٨٢ - النثرية والأديان . |

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

